حي السقاري

هالة قرني

حي السقاري / رواية
هالة قرني
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج
هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧
موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
حاتم عرفة
رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٥٢٨٧
I.S.B.N:978- 977- 6297- 42- 5

حي السقاري

رواية

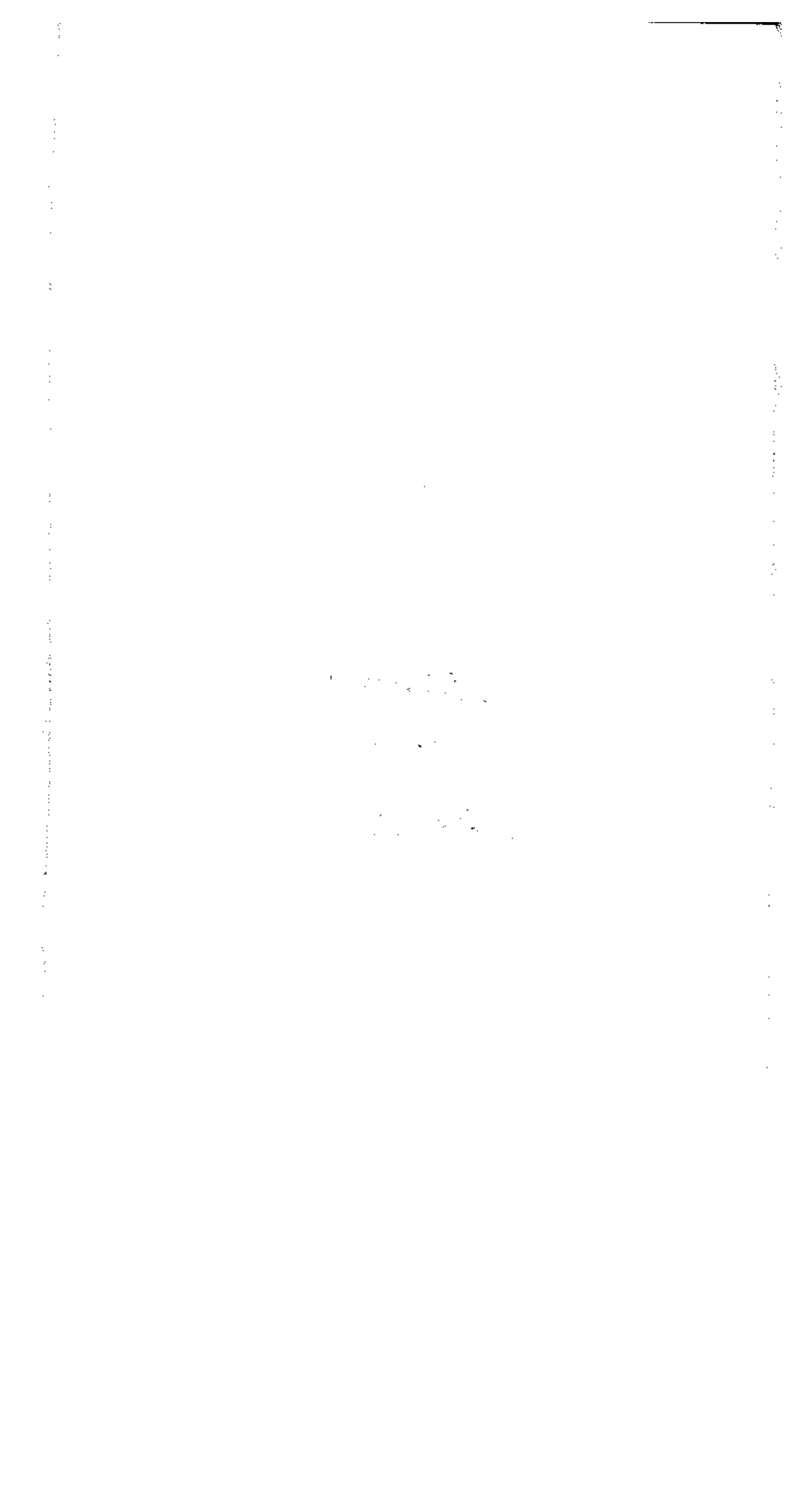
هالة قرني

الطبعة الأولى

٢٠٠٨



دار اكتب للنشر والتوزيع



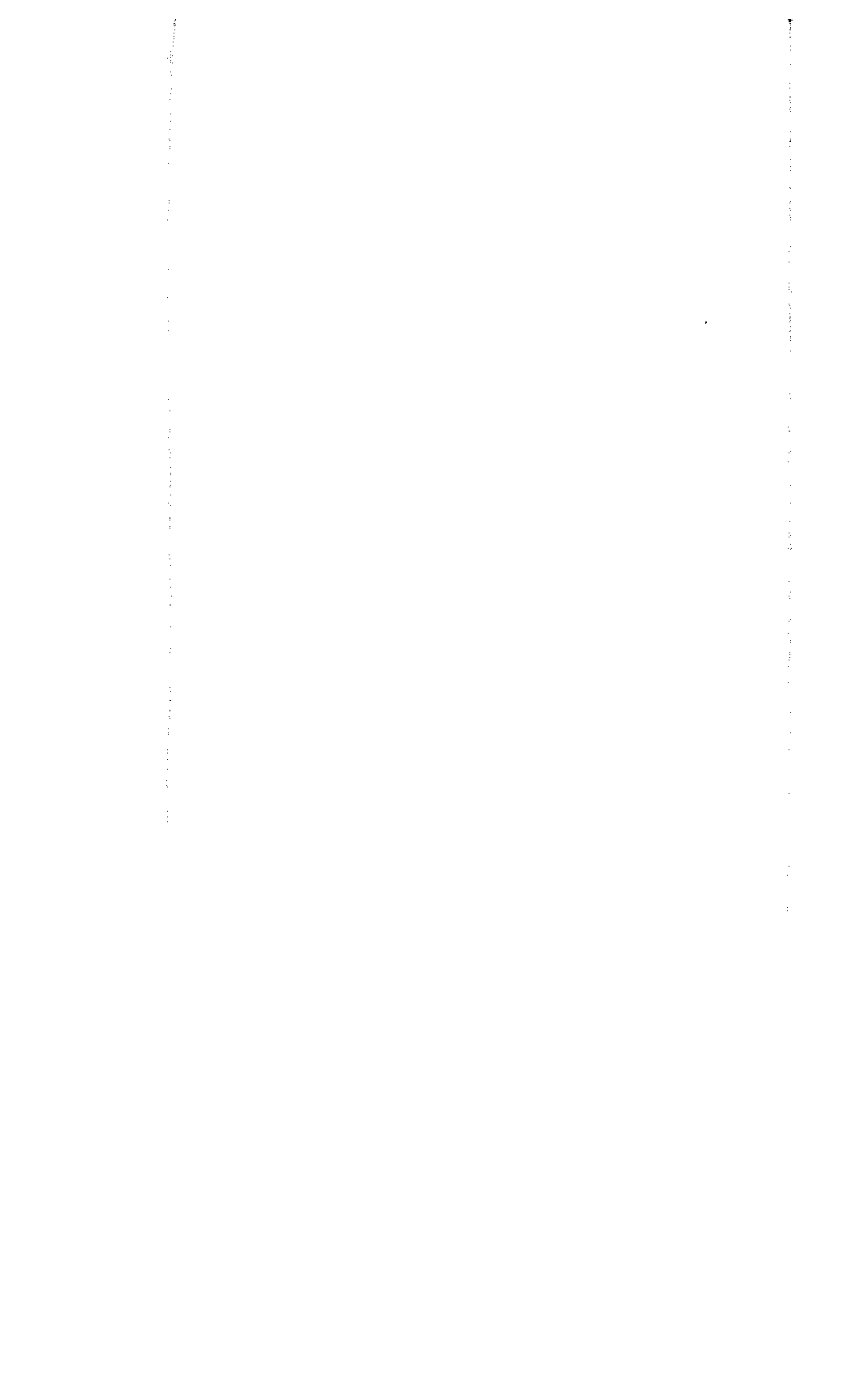
لا يبقى لي شيء تقريبا:

لا شيء ، ولا وجوده، ولا وجودي،

ولا الغرض الصرف، ولا الفاعل الصرف،

لا اهتمام من أي نوع بأي شيء.

ديريدا



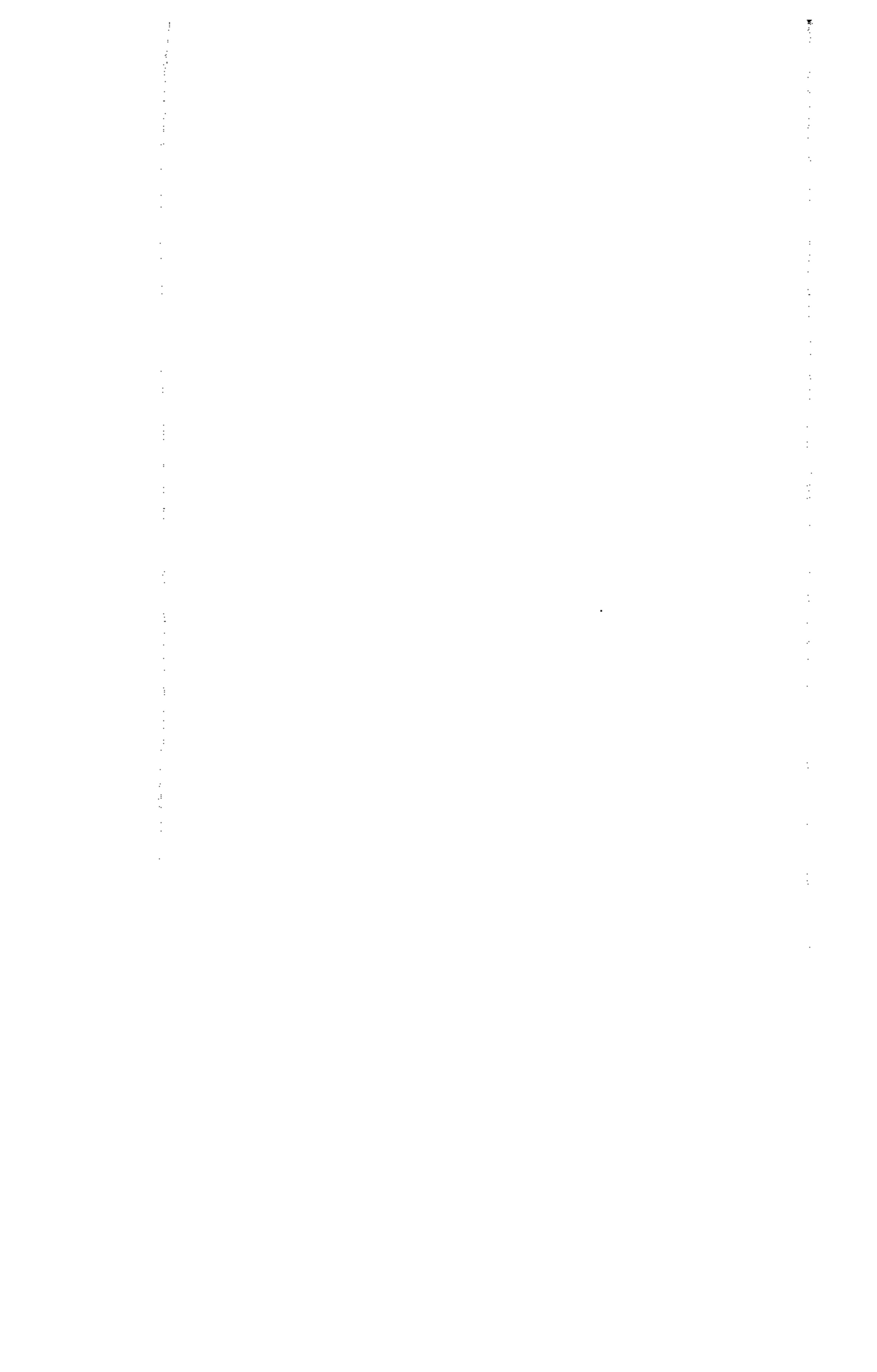
إهداء

إلى جيداء ،

بطلة حي السقاري ،

هذه ليست محاولة قتل،

ولكنها محاولة فهم !



المقدمة

أمسكتُ بخصل شعري الذي غطى عنقي، جذبته بأقصى قوتي، فتنحني رأسي مع كل قبضة ..

"إنت مش ناويه تروحي لأمك في بيت المسنين ،علشان تعزميها ع الفرح ؟ "

جذبتُ شعري بقوة مضاعفة، وقلت بصوت عال "عايز يتحلق بالموس"عبثت في الأشياء القديمة المبعثرة، خلعت الأدراج، تحولت الحجرة إلى مقلب قمامة، اشمأز عجورة"إنت مالكيش في النضافة ،حتى الشقه اللي زي القصر، واللي كل حي السقاري بيحلموا بواحده زيها ،حولتيها لزريبه "

وجدتُ ماكينة حلاقة صدئة ،عمرتها بالموس، سقط عجورة فوق الأرض من شدة الضحك أشعل سيجارة، بدأ يرقب يدي التي تسلخ فروة رأسي بطريقة اعتباطية، طلب مني أن أنظر في المرآة .."أنا مش عارف إنت ليه دايما بتتعمدي تقتلي أنوثتك؟! هو إنت مش ست ؟!"

مسحتُ الدماء التي لطخت وجهي، وقلت "حي السقاري احتمع كله في الجامع خصوصا في ضريح الشيخة عائشة؛ بعدما

علموا أن رجب حصل على أمر هدم الضريح، وأيده إمام الجامع الجديد" لمعت نظرة خوف في عين عجورة التي سترها طبقات من اللحوم السميكة ،استأنفت كلامي"باعتباره بدعة "

"على كده هتبقى مجزره، لأنهم هايهدموا الجامع بحجة الضريح" .

خيرتُ نديرة بين بيع البيت لرجب، أو الحجر عليها؛ ومعنى ذلك ستبقى مدى الحياة رهينة مستشفى المجانين؛ مثلما فعل رجب الحوشي مع بطة (بعد موت سمير) عندما اتهمته بقتل عائشة التي طالما استخدمها كرداء لكل مخططاته ، اختارت نديرة العيش في بيت مسنين، خاصة بعد فشل مشروع ملجأ العذراء الذي اشتركت فيه مع بطة، والذي استنفد كل مدخراتهما، ولم تنقذه التبرعات الضئيلة التي كانت تجمعها، وخاصة بعد انشغال بطة بمرض سمير،وتفرغها الكامل لرعايته، أما بعد موته دخلت في حرب خاسرة مع رجب ، يئست نديرة ،فاتفقت مع بطة على التبرع به إلى مديرية الشئون الاجتماعية التي قامت بتوزيع الأطفال على الملاجيء مع بيع الأصول.

اشترطت عليَّ نديرة لكي تغادر المترل أن أتكفل برعاية شعبان الصغير، ذلك الطفل الذي تولت رعايته منذ صغره

حيث وجدته رضيعا في فناء مسجد السقاري ، أعتقد أنها تريد أن تعجزني، " أأنا أتحمل رعاية طفل؟! ،كيف واتتها الجرأة أن تتحمل هي رعاية طفل ؟ تلك المرأة التي فشلت مـــع ابنتـــها الوحيدة " مازالتُ أتحدث عنها بطريقة حاقدة، وهذا يـــشعرني بالراحة ، بمجرد ما استلمت شقتي الجديدة(بإحدى عمـــارات رجب الحوشي)، ألقيته في أقرب ملجأ ، وكانت تلك اللحظة صحوة ضمير ، فأنا لا أمتلـــك ســـوى القـــذرات، أشـــعر بالاضطراب عندما أتذكر الطفل شعبان، وكـــذلك الحـــسام ؛العاطفة التي تنتابني نحوهما تشعرني بعدم الراحة؛ ولذلك سأغيّر الموضوع ، تحولت شقتي هذه إلى مزار من قبل سكان حـــارة فهيمة، والحارات المجاورة لها ، كان يأتي بهم رجب في أفـــواج تشبه الرحلات الإقليمية ؛وهو يقول "لو بعتم ، هاتخدوا زيها "

وفقا لنظام المقايضة تم هدم حارة فهيمة التي كانـــت تمثـــل بقعة سوداء في الشكل الحضاري لحي السقاري ، أقصد حـــي المدينة كما أطلق عليه الـــدكتور بـــاهي الـــذي حـــاول أن يُخصخِص أهله كما يخصخص منشآته ، يقول:" إن القـــوانين يجب أن تطبق على البشر،كما تطبق على المنشآت، لا فـــرق بينهما، لكل منهما روح، ولغة،،وسعر،"وفقا لهذا صنّف أهـــل

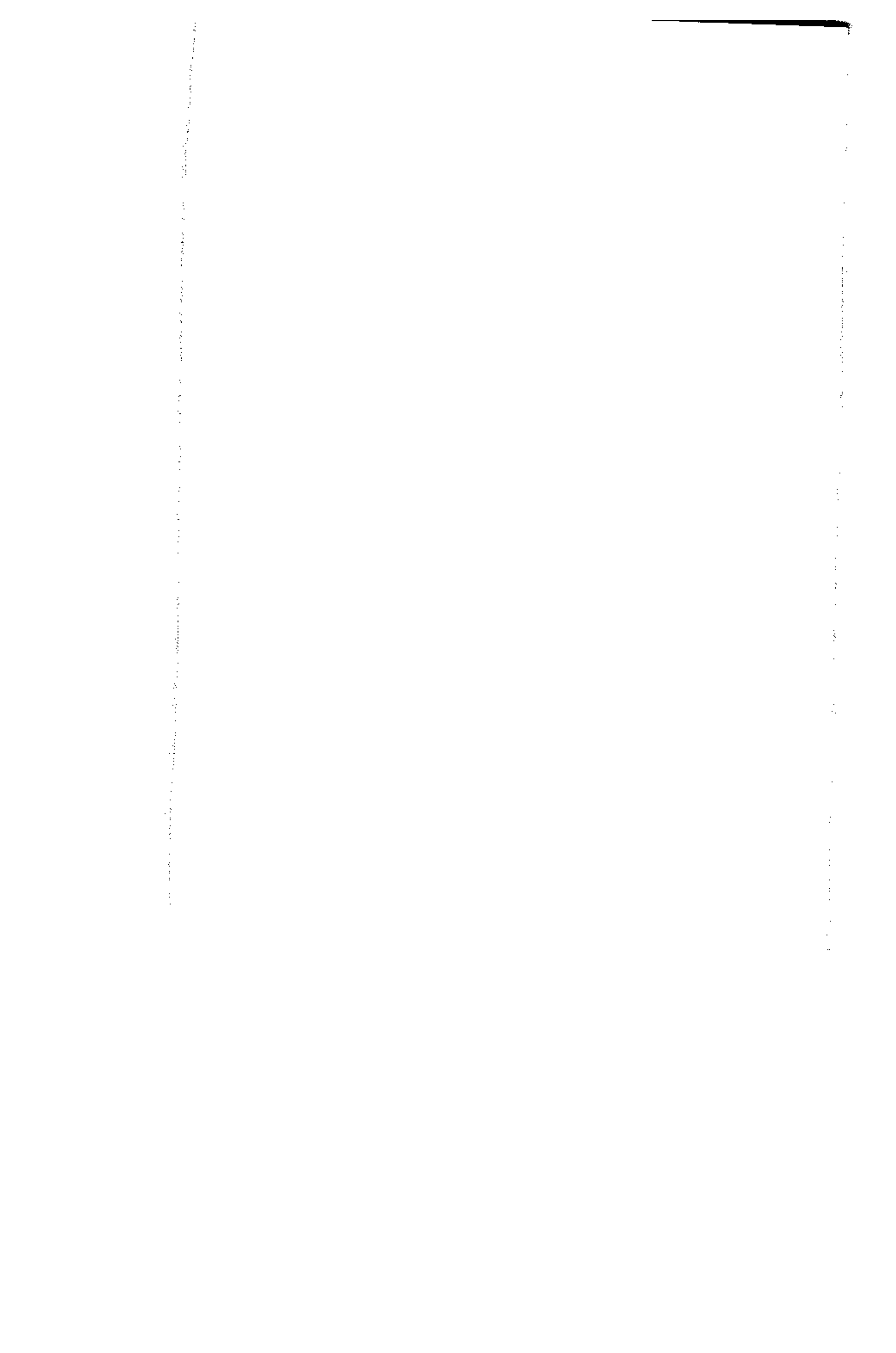
الحي إلى قسمين :قسم عباقرة العقل، وتم تصديرهم للخـــارج، وفق سمسرة محترمة أوعمولة باعتباره رجل العولمـــة في هـــذه المنطقة – أما القسم الآخر هم الحرفيون والخدم، تزحزحوا من أماكنهم شيئا، فشيئا حتى انتهى بهم الحال إلى بدروم عمارات الحوشي .

ما يهمني في الموضوع عدم تحُقق وصية فهيمة بدفنـــها في الحاصل مع شعبان، وابنه اللذين تم نقل رفاقهما إلى مقابر " بني عثمان"خارج الحي تماما، تعيش نديرة الآن في بيت المـــسنين، كما تعيش بطة في الدير بعدما أنقـــذها الأب مطـــران مـــن مستشفى المجانين، بينما أعيش أنا بمفردي في تلك الشقة الـــتي تشبه قصر رضوان المهجور الذي هرب منه إلى عائشة الحوشية، وحتى بعد موتها فضل أن يسكن في جوارها، داخل الضريح .

إنني أراهم اليوم بجواري، يجلسون معي فوق المنصة، وأنـــا ألقي المحاضرة الأولى بعد حصولي على درجة الدكتوراه، وأنـــا أكرر نفس كلام الدكتور باهي الـــذي اختفـــى في ظـــروف غامضة بعدما حقق فلسفته الكبرى في تغيير حـــي الـــسقاري الذي يُمثل نقطة بداية التغيير للبلـــد كلـــها، وفقـــا لنظريتـــه " الانتقاء والطرد " .

"العناصر المنتقاة هي تلك العناصر المتميزة التي تتمتع بموهبة القدرة على تغيير الشعوب، على أن يكون هذا التغيير لـصالح النظام المسيطر سواء كان دولة، مؤسسة، حركة، شخص، أما العناصر الثابتة، الغير قابلة للتغيير، تُطرد خارج مجال المنافسة حتى تفنى ".

لم أستطع ضبط يدي المرتعشة، فأثارت الطريقة التي حلقت بها شعري؛ ضحك عجورة، تفجر بسلسلة من الضراط، لدرجة أنه تبول فوق السجادة ؛ خجل، لكنه سرعان ما تناسى..



التخيل يخلق الحقيقة ،والحقيقة تنفي التخيل ،

وأنا أبحث عن الحقيقة ،فلا أجدها!

أتخيلها ،

تنفيني!

فأتحول أنا إلى وهم!

وتتحول هي إلى واقع !

جيداء



١

فور دخولي المترل، رأيت نديرة متصلبة بجوار الباب ،عيناها تحفران قسمات وجهي في افتخار، تحركتُ في لامبـــالاة نحـــو حجرتي (فقد اعتدت الاعتكاف فيها منذ وفاة شعبان،وبالرغم من استغراب نديرة لموقفي المتناقض بـــين إصـــراري علـــى الاستماع لحكاياها عن أهل حي السقاري ، ورفـــضي لتلـــك الشخصيات، بما فيهما شعبان، ونديرة فقد حرمتهما من لقب الأبوية للأبد) .

قفزت نديرة ، حالت بيني وبين باب حجـــرتي،مـــدّت إليّ الخطاب ، شيّعتْه بنظرة استعطاف،فيها استكانة لاتليق بسمات شخصيتها،ألتقطتُه بـــبرود، فضـــضتُ مـــا بداخلـــه بنظـــرة سريعة"وافق مجلس الكلية على ترشيحك لوظيفـــة معيـــدة في قسم.."قبل أن أكمل السطر قراءة ، مزقت الخطـــاب ، وأنـــا ابتسم في اشمئزاز، نثرته أسفل قدمي نديرة التي غشى وجههـــا سحابة أصفرار، كأن روحها تحتـــضن الوريقـــات الممزقـــة، أخرجت مفتاح حجرتي من حقيـــبتي ، صـــفقتُ البـــاب في وجهها، ترامت إليّ كلماها مختصرة، محتضرة..

"أبوكي اللي مات ، شقايا، الامتياز "

فتحتُ باب حجرتي في عنف،انفجـــر صـــوتي مـــصحوبا بصرخات هستيرية "بقالي تلاتة و عشرين ســـنة بكفّـــر عـــن تربيتك ليّا، والامتياز ده آخر ديوني، مابقاش فيه حاجة تربطني بيكي ،قدامك شهر يأما تتجوزي، أو تعيشي في بيت مسنين، لأني ناويه أبيع البيت لرجب الحوشي"ثم أغلقته بالمفتاح ،نزعتُ جلبابي بأقصى عنفواني أصبحتُ عارية تماما ،حلقتُ شـــعري الكستنائي ،ألقيتُ بخصلاته الناعمة فوق مّلة السرير المجردة تماما من أية فرش،كل شيء يصرخ حولي بهمجية: أدراج خـــشبية مكسورة، أكوام من الكتب الممزقة ،المبتلة، متناثرة فوق كتل القطن المتعفنة، ملقى فوقها أعقاب سجائر من النوع المستورد ، اسطونات كمبيوتر محطمة ، جلباب أسود ممزق مـــن فـــوق الكتفين، ومن اسفل السرة إلى نهايته، بدأت أحرك الموس فوق جسدي كله كأنني أحرثه ..

"جسدك خصب مثل الأرض، قابل للزراعة في كل اعضائه؛ لأن به كل العناصر القادرة على إنبات أي بذرة تلقـــى فيـــه: الكلمة تنبت الفكر،أما اللمسة تفتح أحساسيك الانثوية؛والقُبلة تنضج اعضاءك الجنسية، أما الغريزة فتحصد ثمار جسدك ؛ وبما إنني أمهر زراع جسدك، وأكثرهم علما بتضاريـــسه ،فـــإنني اكتشفت المنطقة البكر التي حُرمـــت علـــى كـــل الأعـــضاء الذكورية" .

يوجد في الركن الأيمن للسرير مكتب خشبي طفولي فوقه كمبيوتر ،قرأت الرسالة" مبروك،وبهذه المناسبة ،يدعوك نادي صناعة العباقرة لحضور جلسة طارئة"أزحت الكمبيوتر بأقصى قوتي.

* * *

"شفت ياسطى سمير عمة شعبان عملت ايه ؟ " كسرت البلاطة، عشان ماعرفش أخبز، وأنا على وش ولادة "!

انشق الحوش عنها فجأة ،واقفة كالعامود بجوار الفرن، مرتدية جلباب أسود، ينحسر عن ساقيها العصويتين ،برقت عيناها، تحملقان في النسوة اللاتي استجمعتهن صرخات نديرة، امتصت اذناها الكبيرتان همساقمن ،شتائمهن..

ياسوده ياكوده	ياوش الهباب
رمشت بعينك	خوفت الكلاب

أمسكت فهيمة المقشة ،وبكلتا ذراعيها الخشبيتين المعلقتين في جذع مستطيلي قصير كنستهن إلى منتصف الحارة،هرولت خلفهن،غسّلتهن بالسباب الذي ينجرف من فمها المشقوق طوليا (كأنه فم جمل)أسفل وجنتين أكلتهما تعريجات الزمن.

" و العدرا مريم لتخبزي عندي كل مرة ، وآدي الفرن موجود ، ونشارة الخشب دى كارنا ".

أمام إصرار الأسطى سمير حنا لم تستطع نديرة رفض عرضه، فقد جربت كرمه منذ يومين عندما أوصل لها خرطـوم ميـاه (طوله يتعدى الخمسين مترا) من مترله إلى حجرتها في بيـت فهيمة التي أغلقت محبس المياه في محاولاتهـا المتكـررة لطـرد شعبان،وزوجته نديرة من المترل ،أحمر وجـه سمـير غـضبا ، انغلقت عيناه الزرقاوان ، يهتـز جـسده النحيـل القـصير (كالأستك)، ضرب كفيه المبريين من كثرة الإمساك بالمنشار، "ما يكنش عندك فكر ،ها فتح لك الحنفيه ليل ونهار ، ده أقل واجب ، ده إنت السبب في دخول الميه للحي كله".

انحنت نديرة بجسدها اللدن فوق الماجور ،حاولت بطـة أن تعجن بدلا منها ،لكن نديرة أصرت ..

"ماكلش عيش مش حاطه إيدي فيه "

بعدما أذابت نديرة البيرة في الماء ،وضعت الدقيق ، بـدأت تغني أغنية العجين، وبطة منصتة لها ..

ميتك زعفران وملحك	حبهان عجينك من رخام
واللي ياكل منك لقمه	تترل في بطنه بالتقوى والإيمان
يا عجين الإسلام	كل شين فيك يظهر ويبان
من قشه وقشيشه	ياعجين ستنا عيشة النضيفه

يغوص ذراعاها العاجيان ،يدلكان العجين ،اصطدمت كفة يدها الطفولية بأصابع بطة المسمارية التي أصرت على مساعدتها؛ ابتسمت نديرة " هايجوزك، دي الورشة ورشتك، والمال مالك".

احتضنت أكبر كمية من العجين بين ذراعيها، رفعتها، هبطت بها؛ تظهر فقاعة ضخمة كالبالون، تفرقعها بيدها اليمنى "سكعتك كف زيد ميّه وألف سكعتك كفين زيد ميّه وألفين"

توقفت نديرة أمام باب حجرتي (المغلق دوما بالمفتاح)، تغلي من الغيظ ؛ فقد حرمتها الدخول عليّ منذ وفاة شعبان، نادت عليّ نديرة، وهي تتحرك نحو الصالون"عجورة ابن كلثوم في الصالون"

أدخلته نديرة في حجرة الصالون، جلس رجل مربع الجسد، يتراقص كرشه مع كل حركة (كالمرأة الحامل) مرتديا بذلة حمراء ذات خطوط بنية اللون ،تتراقص بين أصابعه سلسلة مفاتيح في عصبية "أنا الباشمهندس ربيع ،صاحب أكبر شركة مقاولات فيكي يا بلد، بلعب في الملايين"

نديرة كادت تسقط من فوق الكرسي من شدة الضحك " نسيت، سامحني، العيب ع الزمن!"

هرولت كلثوم الداية خلف ابنها عجورة ،محتضنة بين كفيها كومة تراب، كلما اقتربت منه ،نثرتها فوق رأسه، وهي تصرخ " يحرق أبوك ما طرح ما راح، هرب، و ساب لي بلوى ".

تعثرت قدمه في الحجر الموضوع أمام بيت فهيمة التي تجلس لحراسة الكتاكيت، سقط فوقها ، انهالت فوقه بالمقشة، انتهزت كلثوم الفرصة، غسّلته بالتراب المختلط بــروث الكتاكيــت، انفجر صوته صارخا ..

"ألحقني يا معلم شعبان!"

هرول شعبان مرتديا غلالة رقيقة، ترى من خلالها تفاصيل جسده، اختطفه من بين أيديهن، كاد الضحك يقتل نــديرة، حاولت كلثوم أن تتخلص من حضنها ،وهي تندب حظهــا" أوعي يا نديرة،سيبيني في حالي ،قال إيه الموكوس؟، بــدل مــا ياخد الدبلوم ،عشان يتوظف، ويساعدني في المعايش، قال إيه؟ عايز يغير اسمه، صرف تحويشة شهرين شقا، قال إيــه ؟اسمــه ربيع، اتربعت في حله يا بعيد!"

أجلسه شعبان فوق الحصير في مدخل البيت ،أمام حجرته..

"أنا نويت أطفش "

أحضرت نديرة براد الشاي، وضعته فوق الباجور، أشعلت سيجارة لشعبان، قبّلها؛ أحمّر وجهها عنــدما رأت غمــزات

عجورة، فحاولت تغيير الموضوع"حكايتك بتفكرني بحكاية سمعتها من أمي (الله يرحمها)، حكاية داهيه ،سمعت واحد بينادي، ويقول "أنا رمضان بياع الأسامي"..

قالت له"هو أنت بقى رمضان اللي جوزي عمّال يحوش لك من سنه؟"

عطت له كل الخزين اللي في البيت (اللي جوزها محوشه لشهر رمضان)،واشترت اسم هانم ،ولما رجع جوزها فضل ينادي" يا داهيه " إنها تردا، في الآخر نزل لها من السطح، لقيها قاعده تتكحل، وتغني..

"إنت مش سامعه؟!"

بصت له بقرف "أنا أسمي هانم" .

حكت له، عرف أنها خلته ع الحديده ، هج وساب لها البلد، و فضل ماشي من بلاد الله، لخلق الله، آخر ما تعب، قعد قدام قصر كبير، شافته صاحبته "هانم بحق، و حقيق "صرخت فيه :

"أنت مين يا راجل؟ وجي منين؟ "

رد وهو زهقان "أنا من جهنم" !

قالت: " ماشوفتش آبويا هناك؟

قاللها:" شوفته، حالته كرب، جعان، عريان، مفلس"

عطت له كل الفلوس اللي معها، ولحاف وبطانيه، وهـــدوم جوزها الجديدة .

قال لها "ماقدرش أروح جهنم ماشي".

قالت له"خد حصان جوزي".

رجع محمل لمراته داهيه، قاللها "تعالي، آتـــاري في الـــدنيا دواهي أكتر منك".

دفنتُ جسدي في الجلباب الأسود الممزق، فوجيء بي حليقة الرأس، كتم عجورة دهشته، لمع كشاف كتفي خلف التمزق، فتش بعينيه المتنمرتين عن موضع آخر أشبه فيه نديرة ، ألاحظ عينيه تتنقل بيني وبينها ثم يتنفس في رضا ، مازالـــت احـــتفظ بنفس القسمات ،رغم تشويهي لها ، إنني شبيهتها هـــذه هـــي الحقيقة التي أمقتها،لمح سرتي تلمع كفص ماسي، برقت عيناه، وارتعشت يده، جلست نديرة بيننا ،فسدت باب رؤيتـــه،"والله فيك الخير يا عجوره، لسه فاكر معلمك؟

عاد شعبان داكن الوجه، ترتجف أوصاله ، غاصت عينـــاه الخضروان في السمرة التي ظللت بشرته البيضاء، تكوم فـــوق الكنبة ،انكمشت قامته الفارعة، أكلها المرض ،احتضن نديرة،

أخذ يبكي ،ارتفع صوت نشيجه شيئا، فشيئا حتى فقد السيطرة على جسده، فسقط فيما يشبه نوبة صرع ..

"ماقدرتش استحمل إن عجورة بن كلثوم الداية يتـريّس عليّا، ويشتمني قدّام العمال" .

كنت أرقبهما بحقد شيطاني، أدرك أن المسألة ليست عجورة، فعجورة لم يمثل أبدا أية مشكلة لدى شعبان، فهو سيظل بالنسبة له عجورة " أبو ظرطة "حتى لو امتلك البلد كلها ؛المشكلة أنني التي دفعت به إلى العمل تحت يد عجورة ، إحساسه بالعجز أمامي كان أكبر من إحساسه بالعار أمام العمال، في تلك اللحظة أحسست بالندم ، تصوّرت نفسي مكان نديرة ،أضع رأسه في حضني، وأطلب منه الغفران ، لكنني أعتزلتهما في حجرتي .

"أنا موافقة أتجوزك"

انتفض واقفا، هز سلسلة المفاتيح بغرور"صحيح؟!".

بادلته ابتسامة ساخرة،وانصرفت إلى حجرتي.

* * *

"غيّر شعبان مية الشيشة، مسح بوذها بطرف كمي، وهــو بيضحك "أنا عارف إنه بدلماينضفها ؛هايوسخها " بصت له بقرف، وميّلت، أنفخ في الجمرات، قبض فوق رقبتي بكفة إيده المفلطحة ،وضغط لدرجة إني شميت ريحة شعري، وهو بيتحرق "انفخ ياد ،يا ابن الدايه".

اتمنيت ساعتها أصرخ في وشه، واقولــه قــدام رجــب الحوشي، وبنته عيشة" إني شفت عروسته نديرة، وهي عريانه".

وعى عجوره الحياة من خلال طوابير النسوة اللاتي تبــتلعن حصيرة القش المغطاه لأرضية الحجرة التي إذا تبول فيها ملأها، كل واحدة منهن، تنتظر دورها، فرائحة الحلاوة، تفوح ليــل نهار.

"كت بتخنق، ولما أنام ع الحصيره المبطنة بالشعر الــنحس، كت بحس بخشونته بتشوكني، أهرش طول الليل،ولمــا تيجــي عروسة، تطردني ،وأنام في عز البرد فوق السطح، بــس أنــا صممت استخبى لما عرفت إنها نديرة عروسة شــعبان ؛ مــش عارف ليه ، يمكن علشان عشت معاها أحــلام يقظــة ، ولآ يمكن علشان انتقم من شعبان اللي قدر يهزم الكل ، بما فــيهم رجب اللي عنده فلوس مايكلها الحطب ،آه يا نديرة! ، كــان ممكن توافقي عليّ ؟أنا مش عارف إيه اللي عجبك فيه !"

انحنت كلثوم، تنزع الشعيرات المتطفلة في كل أجزاء جسد نديرة، آسالت فوقها شلالات المياه الدافئة؛ تجلي برونزية جسدها، رطبت وجهها، ورقبتها بحفنة من الدقيق الفاخر في وسط زغاريد، وطبل صديقاها اللاتي سخرن من فهيمة حيث ضبطنها بجوار الزير ، تضع فيه خفية حفن الملح ، ذهبن إلى حجرة العروس كي يرتبن ملابسها..

"هاتعمل لكو إيه؟ ما هي بتشتري الميه؟".

ضحكن، ارتفعت نغماهن الساحرة

شيلي حماتك شيليها   وفي بطن الفرن دسيها

يا عمة العريس يا علبة الكبريته   ماشيه ورانا نحسبك عفريته

حاولت عائشة الالتصاق بشعبان الذي دفعها باشمئزاز، غضبت، جذها عجورة ..

"ماإنت معذوره، أصلك ما شوفتيش مراته!،روحي شوفيها".

فجأة اخترقت آذاهم سارينة سيارة البوليس؛ أصفرّ وجه شعبان الذي لم يمر على زواجه شهر، تبول عجورة في مكانه، وتبخر رجب الحوشي حاملا الشيشة، هرولت عائشة، ارتمت في حجر شعبان، بلعت قطعتي الحشيش بين نهديها ، شدها

الضابط في عنف، لطمها بأقصى قوته "مــش هاتخيــل عليــا لعبتك،عامله نفسك خرسا،إنت هاتشتغليني كل مرة ولآ إيــه ،فين يابنت الحشيش ؟"

مزق عباءتها ،جذبها من شعرها،أشفق عليهــا شــعبان، رد عليه،انتبه الضابط لوجوده،استدار له، ،أمطره بوابل من الاسئلة المستفزة، كتم شعبان غضبه"عندي عشرين سنة، أبويا مــات، أمي أتجوزت ،عايش مع عمي وعريس جديد،.."

دفعه بأقصى قوته، فاصطدم بالعسكري الذي سرعان مــا لطمه فوق قفاه، هجم شعبان على العسكري، وبدأ يكيل لــه الضربات، مما آثار غيظ الضابط الذي صمم علــى إدخــال شعبان الجيش .

"رحل الواد ده؛ عشان يتأدب، والتاني خلي شيخ الحــارة يضمنه".

دخل عليهما الاسطى سمير بعد انتهاء العجين، حاملا ثلاثة قراطيس بها طعميه، باذنجان، فلفل مخلل، وضع الطبليــة أمــام نديرة "أنتو عارفين، جات لي واحده ،عايزه لها طبليه بخمــس رجلين ؛علشان تغيظ سلفتها"

قبل أن تشعل نديرة الفرن، مدت رأسها داخــل الفــرن، همست" شيلو عيالكو ،النار جيّالكو" .

تركت بطة تقريص الأرغفة فوق الردة"إنت بتكلمي مـــين؟
" تفلت نديرة في صدرها"الله يجعلهم راضيين علينـــا ، اللـــي ساكنين الفرن، وأنا بحذرهم من النار"

"إن الشيخ السقاري كـــان مـــاتجوز مـــن تحـــت الأرض جنيّة(سبحان الخلاّق) ،اشترطت عليه شرطين الأول إنه،يبني لها فرن في أوضة مافيهاش شبابيك وبابها مفتوح من بره، خلـــف البوابة الخشب ، كان ماسميها الحاصل،والشرط التاني : قبـــل مايدخل يستأذن وهو نفذ شروطها، وكانت مهنّياه ع الآخر، وبتسيب له فلوس كل يوم تحت المخدة،واشترى الجرن مساحته عشرين فدان كان بيزرعهم رز ،لما يحرق قشه كانت الـــشمس بتغيب تحت الدخان والبلد كلها تفضل عتمـــة يـــاجي شـــهر وابتدى يبنى قصر كبير (مالحقشي يقعد فيه) وكل يوم تطبخ له المحمر، والمشمر،وكل يوم جمعة كان بيعزم الفلاحين عنده اللي شغّالين في الجرن،وخالي كان بيخدني معاهم ،كـــان عمـــري ساعتها عشر سنين ،كنا نلاقي الأكـــل ســـخن وبالعـــشرة أصناف،وكلها أصناف مانعرفهاش بس بتخلينا زي الأحصنة، علشان كده أنا بقيت زي البغلة مافيش أي راجل يقدر عليـــا والبيت نضيف ومترتب وهدومه مكوية ولا مكواة رِجْل، مـــع

إن المكوجي قال" إنه عمره ماكوى عندي" و كانوا بنسمع بالليل صوت عيال بتعيّط ، أما بالنهار كانت بتدخلهم في الفرن،(أصل قصرها تحت الفرن)،وفضل مااهتمي سنين وسنين، وفي ليلة لعب الشيطان في دماغه وقال: "لازم أعرف بتعمل إيه؟، وشكلها الحقيقي عامل إيه؟" ودخل عليها الحاصل بدون مايخبط ،سامحته ، كانت بتختفي بسرعة البرق من قدامه ، مرة، واتنين ..حذرته "أنا خايفة عليك ،ولوشوفتني على حقيقتي، هاتتخض ،ويمكن تشل،وخصوصاً لوشوفت أولادك " وفي المرة التالتة نسي (بحق وحقيق،مش قاصد)دخل،ماخدتش بالها، كات بتخبز، لقيها حاطة رجليها الاتنين مولعين في باطن الفرن، وأيدها اليمين طولها عشرة متر ،بتحول عليها الأرغفة من الأوضة الجوّانيّة في آخر البيت، وأيدها الشمال بتبطط الرغيف على البلاطة المولعة،والعيال فاتحين حنكهم بوسع حنك الفرن بياكلوا الرغيف اللي بيطيب ،هو شافهم من هنا!،ما عطاش منطق،هي شافته من هنا ، صرخت صرخة تقوّم الميتين، فضلنا صاحيين لحد الصبح،وعنيها قادت أقوى من الفرن، وقالت له "مش أنا حذرتك ،قولت لك قبل ماتدخل تخبط"وجبدته من راسه وكات هتدخله في بطن الفرن ،بس

رجعت في كلامها في آخر لحظة؛لما العيال عيطت، ولآيمكـــن علشان كانت بتحبه، المهم خدت ولادها ونزلت تحت الأرض، والناس من يومها ماسمعوا صوت عيال ، ولا شافوه ، في تـــاني يوم كسروا الباب،شافوه راقد ع الأرض قدام الفرن و البلاطة سخنه ،وعيش مخبوز ،وأرغفة لسة عجين ،حامضة،من ساعتها اعتكف في الحاصل لا بيرد ولا بيصد، خالي خـــادني علـــشان أخدمه ويستولي هو ع الجرن والقصر ،كل اللي كنت بأعملـــه أجهز له مية الوضوء وأدخل له الأكل في الحاصل ، ومارضيش يعيش في القصر،وجه رشوان الفرعون واســـتولى علـــى كـــل حاجة(وقتل خالي أحسن حاجة عاملها في حياته) ، ولما مات السقاري، قولت إني كنت ماتجوزاه ، أصل الجواز كان بالحنك من غير ورق، بس ماخالتش على رشوان الفرعون ،بس لما تمت معاه صدق و سابني أورث البيت ".

فجأة ،انطلقت صرخات نديرة، حاول الأسطى سمـــير أن يقترب من حجرة نديرة المحصنة بالنسوة، ضرب كفا، بكف ثم راح يمشي، ويعود عندما تقتلعه صرخاتها..

"نديرة هاتموت في أيد كلثـــوم، حـــد يـــصدق واحـــده ماكمتلش عشرين سنة، تحمل ،وتلد لتاني مرة".

النسوة في الخارج تلقفن بطة منهارة من شدة البكاء، هرولت، ثم عادت تحمل زجاجة مطهر، أعطتها لكلثوم التي ارتجفت من منظر نديرة"الرحم مش هايترل عيال، أنا في المهنة دي من أربعين سنة ،عمري ما وردت عليّا ولاده صعبه بالشكل ده!".

حاولت كلثوم دمغ التمزقات الشديدة التي أحدثتها في الرحم ،خوفا من الطبيب الذي هددها بالسجن.

" يجب أن نستأصل الرحم فورا".

وصل الخبر لشعبان في الجيش، "كل ده عشان بنت!".

أخرج القائد من جيبه ورقة مالية فئة العشرين جنيها،وضعها فوق التصريح بأجازة لمدة اسبوع "ستذهب لرؤية المولودة والاطمئنان على صحة زوجتك في حراسة عسكري".

استلم شعبان التصريح، وترك الورقة المالية فوق المكتب، قبض القائد فوق يده بعنف "هديتي لا ترد ".
"أنا كت مسجون" .
أغلقت نديرة باب حجرتها في وجه العسكري الذي نام فوق الكنبة، احتضنته في عنف، فرّغت اشتياقها الذي ادخرته منذ ستة أشهر"مش كفاية خدوك ظلم!".

أصبحت نديرة كالنحلة،تجلي المترل كله(رغم أنها لا تشغل سوى حجرة واحدة، أما الباقي فتستولى عليه فهيمة) ،فاحت الروائح الشهية ،تعلن للحارة عودة شعبان، تبخر معها ما ادخرته من نقود خلال ستة أشهر منذ آخر زيارة له قبل أن يبني السور فوق الصول ،غرق عسكري الحراسة في لذة مطبوخالها لدرجة أنه نسى شعبان الذي يجتمع بكل رجال الحارة فوق مصطبة صهره الحاج قمر الذي وضع عصاه في حجره، والتقم كوب الشاي "أنت بتفكرني بأيام ما كنت عسكري سواري ".

اثناء مرور ضابط نبوتجي في صحبة العسكري قمر ،سمعا طلقات نارية تنطلق من حقل زوج فهيمة (الثالث) طلب منه الضابط أن يلاحق القاتل الذي ظهر وجهه في ضوء القنديل الذي يحمله العسكري قمر .

"أنت الظابط، وأنا ماشي وراك"

وبخه الضابط ،شتمه باسم أمه "ده أمر، ياابن الزانية "

جذبه قمر من فوق حصانه، أوحله في البحر الذي يفصل عشش الحوش عن غابة النخيل التي تقع خلف حارة فهيمة من جهة الجنوب ،ثم انهال فوقه باللكمات .

"ما أنت عارف، إنه سمعان الحوشي ،عايز الحوش،يطلعوا علينا ياكلونا صاحيين؟!"

ثم نزع زيه العسكري، وألقاه فوق الجثة .

٢

"بعت له هو الوحيد اللي يقدر يقنعك"

طلبتُ منها أن تدخله، اشتعلت نديرة غضبا"إزاي اخلـــي راجل غريب يدخل أوضتك؟ّ !"

ارتعش جسده النحيف ذو الوجه المخروطي الأسمر ،محفور داخله عينان عميقتان غائمتا اللون،عندما دخل ؛فوجيء بكـــم الدمار الذي حلّ بالمنزل (خلال الخمسة عشر عاما التي عاشها في غربته)، افترس العنكبوت حوائط المنزل،طوّقهـــا بخيوطـــه المطاطية ،توّغّل باهي إلى الداخل، تأمل المصطبة الموجـــودة في الصالة، تحرك ببطء إلى غرفة النوم القابعة في أقـــصى المـــترل، فسقط باهي في انهيار عصبي (عندما تفقد جلبابا نسائيا أسود، ممزقا من فوق الكتفين، ومن أسفل السرة إلى نهاية أطرافه) لم يبرأ منه إلا بعد ثلاثة أشهر ،فترة علاجه بإحـــدى المـــصحات النفسية،ومع ذلك رفض مغادرة المترل"إنه المكان الذي يعيش فيه شبح الماضي الذي يتكاثر بصورة وحـــشية في داخلـــي ، فيشّوه حاضري، ويقيّد مستقبلي ، هؤلاء الناس الذين يعيشون في هذه القرية التي تقع في أقصى العالم الأميّ ،تاجروا بالآمي ، كانوا يتلهّون بحكاياتهم عن أمي ،عن فقرنا ،عـــن إحـــساسنا

بالعجز، والذل أمام استبداد خالي العمدة،تمتعوا بمشهد اغتصابها على الملأ، وكأنهم جميعا تشاركوا في جسدها المهان، المكدود،سأكافئهم الآن، سأصنعهم من جديد بطريقتي، سأحولهم إلى منتج بمقاييس ضبط الجودة ،ثم أصدره للمؤسسات وفق احتياجاتها: فهناك مؤسسات تحتاج إلى عباقرة الجسد كي تستخدمهم في أعمال الخدمة والنظافة ،بينما توجد مؤسسات أخرى تحتاج إلى عباقرة العقل ،وهؤلاء يتم تصنيفهم إلى صنفين: أولهما يولد الأفكار المبتكرة ويطلق عليهم "المبدعون" ،بينما الذين يقلدون أفكار الآخرين، فهؤلاء هم الحرفيون "الصنايعية"لكل منهما سعره، وطرق تسويقه، و كلما استطعت استقطاب أكبر عدد من هؤلاء، سترتفع نسبة أرباحي.

اضطرت نديرة للقبول أملا في اقناعي بتغيير موقفي، أصرت على مصاحبته ،بمجرد أن فتحت باب حجرتي، انصعقت من عريّ الفاضح ،أخرجت لسانها الذي تسمّر بين شفتيها الغليظتين، حاول الدكتور باهي اقتحام الحجرة، هاجمته الرائحة العفنة ، اندفع للوراء، أخرج منديله، كفّن فيه أنفه وفمه بأقصى قوته الضاغطة،بالفعل ينجح في المرة الثالثة في اقتحام الحجرة، رآني مقرفصة فوق ملة السرير " تجلسين كالمانيكان

من المرمر تشع انوثة شرسة في عالم فوضوي،ما أحلى الفوضى! فالفوضى ضد النظـــام، والنظـــام يمثـــل لنـــا كـــل مـــاهو قهري،ظالم،مستغل ،يجب أن نناهضه حتى لوكان بالفوضـــى، أنت تلميذة نجيبة؛ ستكونين خليفتي ،أنا فخور بكـــتبي الـــتي شاركت في تكوين اتجاهاتك ،ووعيك السياسي "

يلتفت يبحث عن مصدر الرائحة، فحص كل ما حولـــه، هاله المنظر،تأمل حجم شراسة الدمار داخل الحجرة: كتل قطن متعفة، ديسكات محطمة، ملابس ممزقة ،سجائر مـــن النـــوع المستورد، انبسطت أساريره"إنها نفس النوع الذي استعمله !"

لكنه شل بصره، عندما قرأ اسم المؤلف ، تجمدت يده فوق أحد الاغلفة "إنها كتبي!" .

رائحتها النفاذة جعلته ينفضها، كلثغة ثعبان"تتبولين فـــوق كتبي ،كتبي أنا؟!".

بعد اسبوع من زواج فهيمة الثاني(بعد السقاري)، طلـــب منها زوجها أن ترتدي جلبابا أسود، جرّته فوق شبابها الـــذي يبزغ بقوة، فيسخر من شيخوخته العاجزة ،ذرعهـــا وســـط الطريق الزراعي في صحبة كلبه المفضل،كلما مرت جاموســـة، زحفت خلفها، حاملة مقطفها من السعف، تلتقط به روثهـــا؛

أصبحت حياتها تتلخص في الانتقال من جاموسة إلى جاموسة حتى آذان العشاء،تعجن الروث، تحوله إلى سماد فوق سطح حجرتها، تبيعه للفلاحين، كانت تشعر بالآمان كلما انتفخت حصالتها بالنقود التي تستقطعها بدون علم زوجها ،تأوى إلى الفراش تحتضن كلبها، ذات صباح رأته متكوما بجوار السرير في فمه قطعة لحوم ؛في اليوم التالي تركت زوجها في نفس المكان ، في فمه قطعة لحوم ،قبل أن تبيع حجرتها بكل أثاثها، بحثت في اصطياد زوجها الثالث؛ يمتلك فدانين،وجاموسة، كان يأتيها يوميا بعد أذان المغرب ،يحمل كيسا به فلفل مخلل عائم في بركة من المياه المالحة، يأكل الفلفل، ويترك لها المياه"انا الراحل شقيان، وإنت لا شغله، ولا مشغله".

.بمجرد خروجه من المترل (كي يبيت في الغيط لحراسة قطنه من الحوش) تبيع بعض كيِّل القمح، وتضع بدلا منها تبنا في قاع الجوال"ها يعمل إيه لما يعرف ؟ها يطلقني ؛ طظ".

شهد الحاج قمر في التحقيق الذي أجبره على الاستقالة " سمعان الحوشي هو اللي قتل جوز فهيمة".

"فصلوني ، مش واخد على شقا الغيطان ، وبصراحة " أم نديرة "(الله يرحمها) وقفت معايا ، باعت كل دهبها

(الكردان) والأسورة والحلق المخرطة)،لمدة خمس سنين ،عمرها ما طلبت مني قرش واحد يوحد الله، قعدت ليل ونهار على قهوة الحوشي ، كانت زمان عبارة عن مصاطب طين مبنية حولين عشة الخمس نخلات اللي كات بتديرها مرات الحوشي قبل مايقتلها، كنت باسمع مشاكل الصنايعية، أوزع الشغل، اسمسر، شوية فشوية، لاقيت نفسي مقاول أنفار،واستغليت شعبيتي في طائفة المعمار، ورشحت نفسي في انتخابات مشيخة البلد، ونجحت".

طالما شعرت فهيمة أنها بضاعة ، تنتقل من يد إلى يد ،بصفة قانونية(على يد مأذون)،لم تتمرد على هذا الدور، بالعكس قررت أن تجعله تجارتها،تحقق منه الحد الأقصى من الربح، منذ أن باعها خالها للشيخ السقاري في السبعين من عمره ، وهذا انتقلت ملكيتها من خالها إلى زوجها الأول،فالثاني،فالثالث،اتقنت دورها بمهارة فائقة، إنها امرأة منحها القدر المواصفات المطلوبة ، قوية ، تجيد أعمال الحقل، والمترل، تُحركها غرائز شهوانية تشبه الشلالات ، قادرة على أن تسحق رجولة من يسقط فيها حتى الموت ،"وربما قد يبرر هذا موقفها من زوجة أخيها ثريا عندما طلبت منها أن تترك أخيها ،(وهوعلى حافة الموت)، وتتزوج من شخص آخر، فهي لا تستطيع أن تتصور امرأة بدون رجل يكفيها،هذا التفسير لا يعجبني،لا يناسبني موقف الدفاع عنها أو عن أي شخص آخر

،ما يناسبني ،ويناسب شخصية فهيمة التي أعرفها ، أنها طلبت من ثريا ماطلبته لأنها خافت أن تتحمل نفقتها بعد موت أخيها،في الوقت نفسه كانت تريد أن ترث ابنها شعبان كي يساعدها في الأرض مجاناً، وعندما سيخيّب مخططها فيما بعد ،ستقرر وقتئذ أن تنجب (ابنا تفصيلا على رأي نجيب الريحاني)،ولكن قبل ذلك لابد أن تبحث عن زوج يوسع لها التّركة التي تريد أن تورّثها لولي عهدها،وربما هذا يبرر اختيارها الجرئ للزوج الرابع، وتصميمها عليه، رغم معارضة أخيها له ،وعلى الرغم من أنه مجنون ،وابن الرجل الذي استولى على ممتلكات الشيخ السقاري الذي عرف أمام الجميع على أنه زوجها كما خططت لذلك ، فوقع اختيارها على رشوان أغنى رجل في حي السقاري كلها،الرجل الذي سيمنحها جرنا تتعدى مساحته العشرين فدان ،أصبح أرضاً بوراً، عاجلا أو آجلا ستصبح أرض مباني،وقصراً مهجوراً ولا قصر الملك فاروق"سعر المتر هيبقى بالشيء الفلاني ،ده حقي اللي خده مني أبوه زمان" لكن هناك عقبتان أمامها ، رشوان هذا في مستشفي المجانين، و الحوش احتلوا الجرن .

قرر باهي إعادة بناء المترل على أحدث الطرز بحيث يكون بمثابة معجزة معمارية، تجمع بين طرفي العالم شرقه، وغربه، يتلاقى فيه قرنان من الزمان قسّمه إلى ثلاثة أجزاء،أو بمعنى أدق ثلاثة شقق: الشقة الأولى عبارة عن صالون كلاسيكي انجليزي

ذي كراسي ضخمة ،تختبيء داخلها ، منخفض السقف، مظلم عدا عدة كشافات ملونة ،بارد لدرجة الثلج ، لأنه مزود بثلاثة أجهزة تكييف تعمل في نفس الوقت.

أحاول الآن أن أفسر بعد سنوات من زيارتي الأولى له، إنه كان يريد بهذا الجو البارد، الثلجي أن يستبقي نفسه في تلـــك البلاد التي وضعت طبقات من الجليد فوق ماضيه، ودليل على ذلك أنه يحتوي مكتبة ضخمة تضم تـــراث تلـــك الحـــضارة الباردة،والتي حولته من مجرد كلب حراسة لدى خاله، وأداة من أدوات التسلية لدى ضيوفه المتهكمين إلى فيلسوف يـــسعى إلى تغيير ثقافة بلد بأكملها ، بينما القسم الثاني فهو المعمل الـــذي يقوم فيه بإجراء فصل بين الناس ، من هو سيصلح أن يكـــون من عباقرة العقل؟، أو من سيصلح أن يكـــون مـــن عبـــاقرة الجسد؟، من سيصدره، ومن سيستبقيه؟، وأطلق عليه " نـــادي صناعة العباقرة " يضم حجرة الاجتماعات، وهي عبارة عـــن ترابيذة بيضاوية (تشبه ما ئدة كـــامليوت في فـــيلم الفـــارس الأول) وحجرة أخرى تشبه مركز كمبيـــوتر، يجلـــس كـــل شخص أمام شاشة كمبيوتر، يوسوس له عن أي شـــيء، ولا شيء (يطلق عليها لحظات بوح) اكتشفت في ذلـــك اليـــوم المشئوم (أي بعد أربع سنوات من تلـــك الزيـــارة الأولى) أن

الدكتور باهي كان يحتفظ بملفاتنا داخل كمبيوتر عنكبــوتي ، يحتفظ به في القسم الثالث الذي ظل كماهو(في الماضي)برغم ما يحمل له من ذكريات شاذة ، واعتبره الركن الخاص به .

"ازيك يا بنت أخويا"؟

صدمتني الجملة، لم أره، منذ مشهد تحطيم المروحـــة فــوق رأسه (التي اخترعها قبل سفره) ردا مني على ما فعله في مشهد شائعة تكهرب شعبان؛ فأنا أكره الاغتصاب حتى لوكان مجرد قُبلة ، إنه فاجأني، عاودتني حالة الاشمئزاز التي كانت تنتــابني كلما آراه ، فأنا تبنيت بصورة واعية نظــرة شــعبان لــه، إن عجورة لا يرقى لأكثر من دور صبي بنّاء، والآن أسأل نفـــسي هل كان الأمر يستحق؟! ، لكنه كان القالب الأول في جـــدار غوايتي، دق بأصابعه فوق الترابيذة ،كانت نغماها مـــستفزة، دفعتني إلى الحملقة في تقاسيم وجهه الــذي انــتفخ، فأصـــبح يتلخص في عينين مختنقتين داخل طبقات من الشحوم ، تبرقان بشكل مخيف، خفضت بصري، أتامل الترابيذة ،زمـــيلتي الـــتي مازالت تمارس الإغراء مع رجب الحوشي، مفترضة ســـذاجته التي جرّها معي بعنف ،أما كرسي الرئاسة مـــا زال فارغـــا في انتظار الدكتور باهي ..

"أبوكي مارضيش يعطيني الفرصة" .

ابتسمتُ في عصبية "لن أعطيك الفرصة لكي تمـــارس دور الأب البديل ".

قبل إن يترك الترابيذة، نفخ الدخان في وجهي .

"تتحوزيني؟"

* * *

رفعت إصبعي، ما زالت عيناي، تفحصان ثلثمائة طالـــب، يكتظ بهم المدرج،تندمت عندما رأيتني الوحيدة، طلـــب مـــني أستاذي الدكتور باهي الصعود إلى المنصة، وضعت حقيـــبتي، وفوقها الكتاب الذي بداخله بعض المقالات التي صورتها مـــن إحدى المجلات العربية ذات الطبعات العالمية، ترجلت الدرجات الثلاث التي تصعد بي إلى المنصة ، يسيطر على ذهني سؤال"ماذا يحدث لو اقتربت منه؟!"

فصلتُ عدة أوراق من الأجندة التي أسجل فيها المحاضرات، بدأت أراقب عينيه العميقتين ،كأنهما قضيبي مغناطيس تـــشدان روحي ، تصفّح أوراقي غير المرتبة، ذات الخط السيء الـــذي تتناثر فيه الأخطاء النحوية واللغوية بكل فجر، غير موثقة بأيـــة مراجع"إنها من تأويلي، مجرد محاولة" .

التفتَ إليّ، حاول أن يطمئنني، وعندما يئس مـــن نظـــرة الرعب التي تسيطر على تعبيرات وجهي، لطم فـــوق خديـــه،

تعالت الصرخات، صيحات الاندهاش، الضحكات الساخرة ؛عندئذ أيقنت الطرد من الكلية بأسرها، وليس من المدرج.

"في قانوني من اجتهد، فأخطأ ،له أجران"،صرخ الدكتور باهي ،شلت الألسنة "الأجر الأول المحاضرة ملغاة، سوف أعطيها لجيداء فقط ،في المكتب، أما الأجرالثاني حصولكِ على درجة البحث كاملة".

طردته من حجرتي مصحوبا بلعناتي.

"إنني عملت المستحيل كي يوافق مجلس الكلية على تعيينك!".

انفجرتُ في نوبات من الضحك الهستيري"تقصد اسطونات الكمبيوتر، إنني أتبول على سبع سنوات من أهم مراحل حياتي عبدت فيهم مجرد آلة بالفعل، مزقت ذاكرتي التي تنغل فيها، عدا نص التجلي للحلاج ،ذلك النص الذي شاركني العبادة"

في الوقت نفسه تحررت نديرة من دهشتها، انهالت بالشتائم، لم أرفع طرف عيني، تفلطحت فوق السرير.

"كنتي عارفة علاقتي بيه ،زي ما كان أبويا عارف علاقتك برجب الحوشي"

لطمتني نديرة بأقصى قوقا،ثم هرولت خارج المترل.

* * *

"كان هايقع في المجاري، فاتسند عليّ"

قفز شعبان بمجرد أن لمحهما من الشباك، تفجرت الدماء في وجنتيه ؛كأنه استلف صحته لدقائق، وطيء ظهرها، بدأ يكيل لها الضربات، ثم جرها من شعرها حتى مدخل المترل

" ده أكبر من أبويا،لو كنت عايزاه ماكنتش عملت اللـــي عاملته "

استسلم الحاج قمر للنوم بعدما عاد مـــن جنـــازة زوجـــة الحوشي التي تم دفنها في ضوء القناديل،فزع من غفوته عنـــدما سمع حركات غريبة فوق السطح ،حمل (الكوريـــك)،ترجّـــل السلم في خفة، فوجيء بجثة ممدة، اقترب منها، دقات قلبه أعلى من وقع خطواته على السلم ،همّ أن ينقض عليها، تجمدت يده بنبرات صوتها الرائق.

"داني يا حاج "

ذهل عندما رآها محملقة في القمر "أمي قالت لي: لما يبقـــى القمر في ليلة أربعتاشر، تطلعي فوق السطح ،وتبحلقـــي فيـــه علشان المولود يطلع وشه زي وش فاطمه بنت الخطاب"

احتضن الوليدة فوق ذراعيه، تأملها بإعجـــاب: شـــعرها الأسود الكثيف الذي يغطي عنقها، وجهها المستدير ذو الثلاث

غمازات، رموشها المروحية الطويلة تسجد فوق وجنتين مكتنزتين لفم مثل قلب الحمامة، ضحك الحاج قمر في امتنان "دي شبهي يا وليه، مش شبه فاطمة اللي معرفهاش"

دفعته بيديها الواهنتين ،اختطفت الوليدة "فاطمة بنت الخطاب هي اللي هاتدخل الجنة قبل فاطمة بنت النبي، لأنها هي اللي هاتسوق الجمل اللي ركباه فاطمة الزهراء"

انفجر الحاج قمر ضاحكا."بقا ستنا فاطمة الزهراء هاتدخل الجنة راكبه جمل ؟!"

لقمت حلمة ثديها لفم المولودة التي بدأت تحفر لها مكانا بالضغط فوق الحلمة،"أصل فاطمة بنت الخطاب، وجوزها كانو فقرا،ماعندهمش إلا جلابية واحدة، ساعة ما يخرج يلبسها، وهي تفضل تستناه عريانة بتصلي في الصومعه اللي عايشين فيها، ولما يرجع تلبسها، ويفضل هوعريان يصلي،حياتهم كلها عبادة، ماتنمردوش على اللي قسمه ربنا"

ضرب قمر كفا، بكف"يا وليه كفرتينا، ده إنت غلبت اللي قال: الفقرا هايدخلوا الجنة بس علشان ينضفوها للأغنيا"

* * *

أول يوم ذهابي للكلية بخرني الاسطى سمير، مـــلأ حجــره (كعادته منذ صغري) بالبسكويت، والحلوى، لم ينقصه ســوى حملي فوق كتفيه، كما كان يفعل عندما كنت صغيرة، تتـــدلى ساقي فوق صدره على جانبي رقبته ،ثم الذهاب بي إلى كشك كلثوم الذي فتحته أمام منزلها بعدما ارتعشت يدها ،وضـــعف بصرها، فملأته بسلع تموينيه خفيفة،اتحاشى السير أمام ورشتة ؛ منذ ذلك اليوم الذي دنست فيه مشاعر الأبوية، بل أكاد أجزم أن موافقته على الزواج من بطة (بعد رفض دام ثلاثة وعشرين عاما) كان بسببي ،انتقيت طريق الكنيسة المهجورة، وأنـــا في طريقي،التقيت بمجموعة من الفتيات تسرن إلى الجامعة ،ربمـــا أكبر مني بعامين أو أكثر ،أجد متعة في السير خلفهن، أفحـــص ملابسهن العارية،و أنصت لدقات كعوب أحذيتهن التي تتناغم مع نبرات أصواقمن الملائكية، أتصورهن ملكات نحل ،تجـــذبن الذكورعندما تفوح رائحة أبطهن ،تأملت فستاني الفـــضفاض (كالزكيبة)أنحني كل عدة أمتار، أنزع ما تعلق بذيله من قمامة الشارع، تحررت بعض الشعيرات من الإيـــشارب، فهرعـــت بدفسها "أنا مش زيهم، أنا جايه لهدف، لازم أبويا يعـــرف إني الأحسن ".

ارتجف شعبان عندما دقق في جسد نـــديرة الممـــدد فـــوق الأرض، كأنه يراها لأول مرة بعد عشرين سنة مملوءاًبالحيويـــة، محشواً بالدهون المختلطة بالدماء التي تروي كل جزيئاته ،فيشع ضوءا ورديا .

"أنا عارف إنها صادقة، بس لحد أمتى" ؟

اخترقت نديرة صفوف المصلين، تحمل فوق رأسها لفافة من القماش ،همست في أذن الشيخ عطية الذي فرغ لتوه من آذان العشاء، تركت له اللفافة، ثم هرولت خارجة من صحن الجامع عندما رأت أباها الحاج قمر، يتخطى الصفوف لكـــي يـــصل إليها، لحظات، وأمسك الشيخ عطية بسماعة الميكرفون.

"يا أهل حي الـــسقاري الكـــرام، نـــديرة بنـــت الحـــاج قمر،فسخت خطبتها من رجب الحوشي، ردت له كل هداياه، تعالى يارجب، استلم".

عندما أجبرها أبوها على استمرار الخطبة، ظلت مشلولة في السرير لمدة شهر.

"دي فلوسه حرام ".

كالعادة وصلت المحاضرة متأخرة، تجولت ببصري ، أبحـــث عن مكان، لم أجد سوى البنش الأخير الذي كان يسمى بنش

"الشلالية" مجموعة من الشباب تنغمس في وسطهم مجموعة من الفتيات عدا شاب يجلس في الطرف الأخر" للبنش" دافسا وجهه في كتاب،يُقال: إنه يقرأ أربعة كتب في الإسبوع، ويحفظ قرابة الألف بيت من الشعر حيث كانوا يلقبونه بحسام الشاعر، جلستُ فوق إحدى الدرجات الثلاث ظهري إلى منصة الدكتور، طبقت المثل الذي يقول : تسمع بالمعيدي ،خير من أن تراه، وضعت حقيبتي فوق حجري، فتحت الأجندة، وضعت بجواري الكتاب الذي استعرته من المكتبة بعدما بحثت عنه قرابة ساعة، فهو المفكر الوحيد الذي استعبد عقلي منذ المرحلة الثانوية بداخله بعض المقالات التي صورتها من جميع الصحف ،أمسكت بالقلم متحفزة لتسجيل أي شيء سوف يقوله الدكتور (تنفيذا لنصيحة من سبقني)حتى لو حكة أنفه، شلت يدي عندما سمعت صوته "من يحاول تفسير نص الحلاج؟".

" تجلى الحق بنفسه لنفسه في الأزل، قبل أن يخلق الخلق،وقبل أن يعلم الخلق، جرى له في حضرة أوحديته مع نفسه حديث، لا كلام فيه ،ولا حروف، وشاهد سبحات ذاته في ذاته حيث كان الحق ولا شيء معه ، نظر إلى ذاته، فأحبها، واثنى على

واثنى على نفسه، وكان هذا تجليا لذاته في ذاته في صورة المحبة المتزهة عن كل وصف وعن كل حد، وكانت هذه المحبة علـــة الوجود".

استدرت بثلاثة أرباع جسدي، تأملته في ذهول"إنه هـــو، ليس صورة في مجلة، أو كلمة في كتاب 'إنه هو الدكتور باهي"

" أيوه جمعت فلوسي من اليمن،و حرب اليمن ،كنت عايز أستريح من قفص الفراخ العيانة اللي أكل كتفـــي ، صـــحيح اشتريت عربية كارو ، وبقي لينا مكان لما احتل سمعان حـــرن السقاري، بس مالقيتليش دور، جسمي ضعيف على العـــراك، وحتى مراتي اللي اتجوزتها بقفص فراخ عيانة ،كات بتعـــايرني، هربت ع اليمن بعدما قتلتها، ما كنتش رايح علشان أحارب، بس لما قامت الحرب عملـــت زي كتيرمنـــهم، عملـــت زي الحداية؛ بدور ع البيوت اللي خربتها الصاوريخ، و الـــدبابات مش مهم اللي تبع مين، المهم الحاجات اللي كت باخدها مـــن البيوت، فلوس ، دهب ، أجهزة ، حتى اللبس، كت باســـيب الميّتين عريانين، وبعت للبدو بعض العساكر، والظباط بتوعنـــا، أنا ماعرفتش غير نفسي، بلدي هي أنا ،ولما بعتني فهيمة عشان أتوسط عند قمر (اللي كان راقد وقايم عندي) علشان أخطب

نديرة لشعبان،فعلا كنت ناوي وعشان كده زرته ،كـــان أول مرة أزوره في بيته،وكان أول مرة أشوفها،لما شفتها، افتكـــرت حكاية بنت ملك الغجر اللي من شدة جمالها استخسرها أبوها في كل خطّاها،وفي يوم زين شعرها بكل جواهر المملكة لدرجة أن سبعين بنت عذراء كانوا شيلين ضافيرها بالعافية،و في اليوم ده، قرر إنه يتجوزها رغم تحذير السحره اللي قالت لــه: إن جوازه منها هيسبب لعنة على الغجر، لكنه صـــمم،و في يـــوم دخلته عليها؛ اختفت واختفت معها المملكة كلها واتحكم علينا بالتوهان في الأرض، بس النهارده أنـــا حاســـس اني لقيتـــها، و لقيت معها حظي ،ساعتها خطبتها لنفسي، قلـــت للحـــاج قمر:شعبان ايه؟ ده عيّل أنا هاوكلها فلوس".

نفذ الحاج قمر ما نصحه به الشيوخ، والقـــساوسة حيـــث كنس جامع السقاري بعباءته الحريرية ، رش مياه الورد في كل أرجائه،ونذر عشرين جنيها للـــضريح المهجـــور، ثم ذهـــب للكنيسة، مسح المذبح بملابس نديرة الداخلية، وأشعل دســـتة شمع أمام صورة العذراء، وذبح خروفا في عتبتها، ومع ذلـــك ظلت نديرة عاجزة عن المشي ، يحملها فوق ذراعيه للتبـــول، نصحته فهيمة أن يحملها ،ويذهب بها إلى القبـــور، ويتركهـــا

داخل قبر جديد عند أول آذان للجمعة، ثم يعود إليهــا بعــد انتهاء الصلاة عندما وصل، وجدها تهرول كالحصان.

"والله وشك حلو يا فهيمه، علشان كده هاجوزها لشعبان، صحيح لسانه طوله، بس معلم في صنعته ،ده النــاس بتطلبــه بالاسم"

* * *

خلع الدكتور باهي ملابسه، دخل ركنه الخــاص عاريــا ، جلس أسفل المصطبة، أشعل الحطب ، وضع فوقه براد الشاي ، مسح زجاجة اللمبة البلدي، دخل حجرة نوم ذات طراز عتيق بها سرير نحاس (تحيط به ناموسية من الستان الأخضر) فوقــه ثلاث مراتب فوقها مفرش من نفس اللون، رفع المرتبة الثالثــة، أخرج مفتاحا، سار في اتجاه دولاب ضــخم (يبتلــع نــصف مساحة الحجرة) بمجرد أن فتح بابه تحول إلى حجرة صغيرة من القش ،به طبلية خشبية فوقها كمبيوتر، بدأ يطبع أول أسطوانة في ملف حي السقاري.

"طالبة وحيدة هي التي استجابت، وعملــت البحــث، لم أعرف سوى البيانات الموجودة في السجلات الرسميــة أبوهــا مقاول، وأمها ربة منزل، يبدو أنها تسكن في حي شعبي (فهذا واضح من ملبسها ولهجتها) .

يجب أن أعرف أدق التفاصيل التي تتعلق بحياتها، وحياة الحي الذي تعيش فيه ، وكل ما يتعلق به ،الحواديت، النكات ، العادات ، أعتقد أنها ستكون مفتاح تجارتي، سأجهز لها سلسلة محاضرات، وأحاديث مميزة، ستجعلها تسلم لي من أول زيارة، والآن أجهز أول اسطوانة في بحثي الفارق عن الفلسفة المغايرة.

"إن تغيير العقول هي التجارة المربحة في الصراع العالمي الجديد".

ارتدى الجلباب الأسود الممزق، لف رأسه الثلاثيه بطرحة سوداء ،كالحة اللون، انبطح أسفل السرير، يزمجر بمواويل صعيدية حزينة ، عندما دخلت نفس الحجرة بعد ست سنوات من اختفاء الدكتور باهي؛ ضحكت من نفسي ، هل كنت امتلك تلك السذاجة؟ بعد كل هذه العلاقات،التجارب، القراءات ، الأخطاء، الأحقاد،مازال هناك من يخدعني ، إنه نفس الرجل الذي يتحدث عن الشفافية، والجرأة ، والبساطة، كان يعيش في هذه الحجرة في جو من السرية كأنه من الهراطقة السحرة التي حكمت عليهم الكنيسة بالحرق .

٣

هرول عجورة في وسط الحارة تسبقه عيناه إلى بيت فهيمة، أمسك بكفة اليد الحديدية المنقبضة فوق كـــرة مـــن الحديـــد الصلب، بدأت الدقات تهز الباب الخشبي الضخم ،كأنها تعلـــن عن بدء مصارعة يونانية"افتح ياشعبان قوم خد نـــصيبك مـــن اللحمة".

قفز شعبان إلى الباب الخارجي (بالرغم من عدم تـــصديقه لعجورة المعروف بالكذب ،وبخل صهره الحاج قمر) ارتـــدى جلبابه بسرعة (في وسط الحارة) انتبه على جموع الناس الملتفة حول الباب الخارجي في منتصف الليل "تبقى فيه لحمـــه بحـــق وحقيق".

تدافع شعبان بأقصى قوته ، اخترق الزحام ،دهس قدم عمته فهيمة التي سبقته ، وتصدرت الطوابير، دفعته، بكلتـــا يـــديها المصفحتين ، كادت تسقطه لولا أن اسنده الاسطى سمير ، شعر شعبان بالانتصار عندما وجد نفسه في قلب بيت صهره، التفت يمنة، ويسرة باحثا عن اللحمة "امال فين اللحمه؟!".؟

أشار له رجب الحوشي في اتجاه السقف، ثم شيّعه بابتسامة ماكرة،ردّ شعبان بابتسامة ساخرة، مشبعة بكره دفين؛ تصلب

بصره على فأر مقتول، معلق بحبل غليظ ، في السقف، وبجواره لافتة "الكيلوبخمسة جنيه، لحمه مستوردة"تشنجت عـــضلات رقبته الطويلة، فرك كفيه في عصبية "آمال هو فين، ابن ستين في سبعين؟".

انطلق شعبان في شتائمه الفاضحة، مما أجبر نسوة الحـــارة على الاختباء في الحاصل،ظل لسانه يتفجر بالشتائم في الهـــواء حتى فوجيء بلكزه قوية في ظهره"ألا تستحي من آذان الفجر، يا عاصي"؟.

استدار شعبان متحفزا بقبضة يده، فرأى نفسه أمام جـــسد أعمى، تقوده عصاته "لمؤاخذة، يا شيخ عطيه، أصل الواد ابـــن الكلب..".

لكزه مرة أخرى"تعالى، صلي الفجر، وجر هؤلاء القرود".

تجاهل الجميع دعوى الشيخ عطية، توارت الأصوات خلف الأبواب التي صكت في وجهه، فصرخ في مجموعة النسوة الـــتي تعالت ضحكاتهم."ربنا يترل على حارة فهيمة نجمـــة بـــذيل، تحرق نسوانها".

لم يبق سوى شعبان، مالت عمامة الشيخ، وهـــو يهمـــس له"احترس من الولد عجوره ، سهران كـــل ليلـــة في عـــشش الحوش،يقال إنه يخطط لخطف عائشة "

تراجع شعبان خطوتين "اياك يخلصوا عليه، أما أروح أنــام لي ساعة، قبل ما يفوت عليّا الحاج قمر زى القضا المستعجل"

* * *

اقتحمت بطة حجرتي، خلعت فستانها، من شدة الرائحــة العفنة، وغطت به وجهها عدا عينيها اللتين تجحظــان خلــف زجاج النظارة "سأتزوج سمير غداً، بعد ثلاثة وعشرين عامــاً! ابتسمتُ في ذهول، أقعدتني حُملتها فوق كتل القطن المستعفن "بلغي نديرة إنها سوف تزيني كالمرة الأولى".

قدمت لها نديرة قطعة لبان حتى تطفيء القلق الــذي يهــز جسدها كله،بدأت تساعدها في ضبط الفستان نظــرا لطــول قامتها المفرط ، وقفت نديرة على أطرافها، دست يــدها بــين نهديها الليمونيتين ،وضعت أسفلهما قطعتين من القطن، فاستقر ورد الفستان اللؤلؤي فوقهما ،تأملت نديرة إليتيهــا الجــافتين ،خلعت الشال من فوق رأسها، لفته حولهما ثــلاث لفــات، جلست بركبتيها، طلبت من بطة أن تخلع حذائها، فكــسرت الكعب، بدأت تشد لها أطراف الفستان حتى تغطــي ســاقيها العصويتين ،بينما خرج سمير بعد استحمامه في مــترل الحــاج قمر(توقيرا له باعتباره شــيخ الحــارة)، تعلــق في ذراعهــا

كالعصفور المبتل، في طريقهما للكنيسة وسط موكب ضــخم، يضم حي السقاري كله، وخاصة حــارة فهيمـــة، تتــصدره راقصتان،اضطر للدوران حول حارة فهيمة مرورا بمنزل الحاج قمر الذي يواجه جامع السقاري، ثم السير غربا خلف المقـــابر وصولا للكنيسة ، فوجئوا بمواكب جنائزية تـــصب في جـــامع السقاري لصلاة الجنازة، جميعها فارغ، يحمل صورة الـــرئيس، تلفهم ملابس سوداء ،أمواج من الـــصراخ ،الولولـــة، تكلـــل رءوسهم الوحل، والصبغة الزرقاء ،تلطخ وجههم، وبمجرد أن رأوا موكب الزفاف ،انقضوا كالنسور ،كـــسروا الـــشموع ،مزقوا فستان العروس التي تمرّغت في التراب وانسلخ جلـــدها من العض،دهسوا الأطفال،وظلوا يصرخون"انتوا فرحـــانين في موت الريس، يا ولاد الكلب!،"

استطاع سمير الانسحاب إلى أسفل الأكفان الـــذي وصـــل عددهم إلى الأربعين، شارك في حمل إحداها، ودفنها في القبور، صمموا على الانتقام من حارة فهيمة؛ فهـــي مـــصب حـــي السقاري كله ،وهي الوحيدة التي لم تشارك بكفن في جنـــازة الرئيس، حطموا كشك كلثوم الضريرة، كسروا باب ورشـــة سمير،وكسروا زجاج المعرض وحجرة الـــسفرة المعروضـــة ،ثم

قرروا الذهاب للكنيسة كي يهدموها، حطموا بالفعل صيدلية الراهبات الملحقة بالكنيسة، ألقوا بالأدوية في عرض الطرقات ، ثم استداروا نحو الكنيسة التي التف حولها حي السقاري، فسارع الحاج قمر بإبلاغ الشرطة "أنتو عاوزين تخربوا البلد "

ومنذ ذلك اليوم، والحراسة ليل نهار على أبواب الكنيسة، ومداخلها لدرجة أن هجرها الرواد، واحتلها الخفر.

يقشعر جسدي عندما أحملق في كومة النشارة المتراكمة أمام ورشة الاسطى سمير الذي يقع في مقدمة حارة فهيمة، أتذكر الجرن الذي كنت أزوره في صحبته ليلا للبحث عن إبّوة تشبع عندي الجوع العاطفي الذي أشعر به،(وإن كنت قد عمدت فيما بعد على تدنيسها)، يتخلص هو من ختم مرارة الفشل الذي ختمه عمه فوق جبهته، يعري جسده المتآكل من اللوح الخشبي، أو وخز الشنيور،وكيف حُكم عليه أن يسكن في منزل ليس منزله، وأن يعمل في ورشة ليس ورشته، بل أن يُفرض عليه عمل لم يكن يريده، كان يريدأن يصبح مدرساً لاهوتياً، لكن عمه أخرجه من المدرسة لكي يورثه صنعة أجداده.

لكن لماذا وافقت؟، وأنت تعلمين حقيقة مرضه؟.

" مرضه هذا مسح حقد السنوات التي رفضني فيها، بالعكس أنا شكرته لما رفضني في المرة الأولى، لأن رفضه لي خلقني من جديد".

بحثتُ فوق كتل القطن المتعفن في الأشياء المبعثرة، التقطـــتُ سلسلة ذهبية معلق فيها قلب بداخله صورة العذراء،علقت فيها حرف ال S "خذي هذه السلسلة،كانت هدية من الاســطى سمير،وأنا اليوم أهديها لك".

ألبستها السلسلة، قبلتني ، أحببت تلك القُبلة،وإن كنت غير مبتهجة لتلك الزيجة ، ارتدت بطة فـــستانها قبـــل أن تغـــادر حجرتي، شيعتها بسؤالي "ما مصير أطفال ملجأ العذراء بعـــدما تتزوجين؟"

* * *

خلع شعبان جلبابه الحريري المكوي، علّقـــه في المـــسمار بإحدى حوائط الحجرة التي يتمم بناءها، ارتدى جلبابا قصيرا، ملطخا بالإسمنت الجاف ،انشغل شعبان بإخراج ميزان المية كي يضبط الحائط ،استعدادا لاستكماله "ياد،يا عجـــورة، شـــيل شيكارة الإسمنت، واخلط المونة".

ضرط عجورة عندما رفع الشيكارة فوق كتفه، انفجـــرت عائشة ضاحكة،رطنت بعدة كلمات مبتورة، ثم استرســـلت في ضحكتها، شاركها شعبان الضحك ،حكى لها عن المواقـــف الكثيرة التي ضرط فيها عجورة، كادت تسقط فـــوق صـــدر شعبان من شدة الضحك، اشتعلت أشواك صدره العارية.

"أناعندي ولايا، حتى الشيشة بطلتها"،قذفها للخارج عندما سمع وقع خطوات الحاج قمر ،بصوته الغليظ الذي يسبقه بمئـــة متر، أمسك شعبان بالمسطرين، وهو يصرخ في وجه عجورة، نظرت له في خبث، ثم استدارت ترحب بالحاج قمر، احتكت بكتفه همهمت ببعض الكلمات ، ضحك كل جسدها جذبتــه إلى الخارج ،إلى عشة الخمس نخلات التي تم الاحتفاظ بها على رغم من بناء رجب لعمارته الثانية ،كان يأتيه صوت الحـــاج قمر صارخا "أحنا عاوزين نتحاسب ،أنـــا بـــادفع حـــساب الصنيايعيه من جيبي الخاص" .

انخفض صوت الحاج قمر شيئا، فشيئا حتى اختفى تمامـــا، تبادل شعبان النظرات مع عجورة .

" قتلته يا معلمي "

اشتد غيظ شعبان عندما استفزه الصول الذي هدم حـــائط سور المعسكر متعمدا ،أيقظ شعبان الـــساعة الواحـــدة بعـــد منتصف الليل كي يبنيه في ليلة شتائية ممطرة ؛انتقاما منه، لأنـــه رفض أن يبني لزوجتـــه عـــشة فـــراخ، وقـــف الـــصول إلى جواره،يرتعش من شدة البرد ؛ جذبه شعبان على غرة، قيّـــده، ثم وضعه بين جدران السور ،وبنى حوله "عشان تتدفى".

رغم صيحات الصول في طلب النجـــدة، لم يهـــب أحـــد لنجدته، فسد عليه حتى رأسه، عندما وصل القائد أمر المجندين بهدم السور للمرة الثانية، وأجبر شعبان على إعادة بنائـــه مـــع تحويله لمحاكمة عسكرية التي قضت .

بحبسه لمدة ستة أشهر، مع إضافة عام جديد لمدة تجنيده التي استمرت أكثر من خمس سنوات لمشاجراته وتكسيره الأوامـــر العسكرية .

"ده مابقاش سلاح المهندسين، ده بقى سلاح الخدم، بدل ما أبني الدشم، وقواعد الصواريخ، أبني لمرات الظـــابط الفـــلاني الدور التاني ،ومرات التاني بلكونه،والتالت سور جنينة،حـــتى العساكر بيقلدوهم ، بقى أنا على أخر الـــزمن ابـــني عـــشة فراخ!،هو أحنا اهزمنا من شويه!"

لم يجد شعبان أمامه سوى بعـــض الأطبـــاق ،الأكـــواب، الملاعق، جهاز الرديو، حشرهم جميعا بين قوالب الحائط الذي يستكمله مع إظهار أجزاء منها بارزة عن مستوى الحائط كـــي يراهم رجب، فجأة ثقلت يده كاد يسقط من فـــوق الـــسقالة عندما رأى عمته فهيمة تقتحم المكان،تجر وراءها قطـــارا مـــن النسوة، يتشحن بالسواد ثم انفجرت في صراخ، وولولة ،هبط

من فوق السقالة في قفزات سريعة"يا ولية، إنت أتجننتي ،ما هو أنا قدامك صاغ سليم!"هرول الحاج قمر عاريـــا مـــن عـــشة الخمس نخلات حتى وصل إلى مــــدخل العمـــارة الـــذي ذرع بالنسوة يقف شعبان في وسطهن يحمل فهيمة فـــوق ذراعيــــه، وهي مازالت تكيل له الضربات، وتدعو على عجورة الـــذي اختفى فجأة، وبمجرد أن رأى شعبان منظر الحاج قمر عاريـــا، لم يتمالك نفسه من الضحك، سقطت فهيمة علـــى الأرض، التي قفزت من رقدها ثم هرولت، وهي تردد تهديـــداها "أنـــا هابلغ الشرطة ،ها قول إنك بتحشش أنت الواد عجورة مـــع الحوشي "هرب الحاج قمر واضعا يديه فوق سوأته ،أما عجورة ظهر فجأة كما اختفى فجأة ، طرد بقية النسوة، ثم جلـــس في صحبة شعبان حول مائدة الغداء، في انتظار الطعـــام، تحـــسس عجورة المفرش المذهب ،الأطباق الصيني "الله يرحم! البركة في عيشة"،وضع أمامهما طبقين من الصيني الفاخر: أحدهما مملـــوء بالمش، والآخر به شرائح بصل، بجوارهما ثلاثة أرغفة من الخبز الفينو "والنبي يا معلم لتاخد حتة اللحمة السمينه دي، ده أنت شقيان طول النهار"اختطف شعبان منه شريحة البصل،ثم قذفها في وجهه بعد مغادرة رجب "تصدق إنك ماعندكش دم، كده

أحرجتنا قدام الراجل الناقص ،هوأحنا مشتهين أكلته؟" ،قالهـا شعبان وهو ينحني فوق الطبق باحثا عن قطعة جبن بدون دود.

"يعني هو تعبان في الفلوووس "قبل أن يكمـل عجـورة كلامه، لمح أوزة سمينة، تجر خلفها طابورا .

"إيه رأيك لو وكلتك الوزة دي؟"

حشر شعبان السيجارة في فمه، وكأنـه يـسبح في عـالم حزين"الحل الوحيد السفر، عشان أرتاح من وش فهيمة، البت كبرت هاتدخل الإعدادية السنة آدي ،محتاجة لأوضة ده بتنـام ع الكنبة قدام الأوضة، أنا خلاص مش حاسس برجولتي طول النهار أنا شغّال، وهي طول اليل قاعده ع كنبة بتذاكر، محتاج لبيت مستقل،وأكون سيد نفسي وبقى مقاول وارتاح كمـان من وش الحاج قمر اللي بسببه باشتغل عند الحوشي، بنيت لهم عمارتين، وهانبدأ في التالتة، وأنا ومراتي وبـنتي عايـشين في أوضة!".

انتبه شعبان على صوت عجورة مناديا لرجب"ألحق يا حاج رجب، الوزة بترفرف هات السكينة ".

ابتسم شعبان عندما رأى بجوارها قالبا مهشما،اقترب منـه عجورة يفرك كفيه وهويبلع ريقه.

"تفتكر هايطبخ عليها ايه؟ ع العموم أنا هاكل الصدر!".

مرت ساعات، حان وقت آذان المغرب، اغتسل شـــعبان، تعطر، ارتدى جلبابه المكوي (كما وعد نديرة قبل زواجه بها) انحنى عجورة في غيظ ، يستجمع عدة الشغل، طفـــح وجـــه شعبان بضحكة مكتومة عندما رأى الحسرة تملأ وجه عجورة الذي لم يذق حتى أرجل الأوزة.

"كلت الصدر يا بن الداية ايه رأيك في طعمه؟"

خطف عجورة أجرته من شعبان، وهرول إلى عشة الخمس نخلات

"اشمعنى الحاج قمر؟".

٤

لأول مرة أجلس بجواره، حاولت أن ألمسه، زحزحت الكرسي بخفة، تخدرت من رائحة أنفاسه المعبقة برائحة سيجاره المستورد، كنت أفرغ مطفأة السجائر في حقيبتي، لامست يدي فخذه، رفعتها، كأنها لسعت، لم يبد أي انفعال "تجلى الحق بنفسه لنفسه في الأزل:التجلي معناه التكشف ،أي الوعي كأن الله ينظر لذاته عبر صفاته، وأسمائه في الأزل الذي اعتبرها مرآة ضخمة خيالية، وهذا يذكرني بمشهد الخلق الذي يجسده نص جميل لابن عربي حيث يتخيل أن الأسماء والصفات الإلهية تطلب من اسم الله ،وهو الاسم الجامع أن يتوسط بينهم، وبين الذات الإلهية كي يخلق العالم".

ظللت جالسة قبالته مندهشة، زعزع في عقلي الافكار القدرية التي حاولت نزعها مع الإيشارب الذي كرهته منذ المشهد التوبيخي الذي سكبته في وجهي الزائرة الصحية،ومع ذلك ألزمت نفسي بارتداءه؛ لأنني كنت أحلق شعري دوما، كما أنني اعتدت أن أتعايش مع الأشياء التي أكرهها .

* * *

"لأ، ماقدرش..، ماعرفش أقتل، بس ممكن أشوف،عـايزه اختبر إحساسي لما أشوف حد بيتقتل؛ يمكن ألاقي الرحمة اللي هربت مني من ساعة ما نديرة طردتني من مملكة أمومتها ".

جرها رجب من يدها الطفولية، خبأ عائشة في عشة الخمس نخلات التي تحيطها الآن ثلاث عمارات،أسفل كل منها جراج للسيارات النقل، محلات بقالة، ورش حرفية ،والحوش كلـهم يعملون لحسابه ،(وهذا المصير في انتظار أهل الحي بعد هدمه) ، قدم لها فرخة مشوية، وزجاجة خمر كاملة، رغم ثقل لسانها إلا إن عينيها تموجان بكل عبارات الاستغراب الـذي تحـول إلى خوف عندما رأته يهجم عليها، انكمشت ،هـزت رأسـها، همهمت بكلمات اعتذار مبتورة، ابتسم نفس ابتسامته عنـدما كان يطلب منها استقبال الرواد، اطمأنت أنها مازالـت تمثـل رأس مائه، طلب منها أن تتسلق النخلتين الملتصقتين؛ نفـذت الأمر (كعادتها منذ الطفولة عندما كان يطلب منـها سمعـان الحوشي تمثيل دور الغواية حتى أدمنت الرجال مثـل إدمانهـا الخمر)، وضعت قدمها اليمنى فوق النخلـة الأم، ثم وضـعت قدمها اليسرى فوق النخلة الصغرى، بدأت تتسلق لأول مرة لم تقع في غيبوبة الضحك الهستيري التي كانت تقع فيهـا بعـد

مقابلة أي رحل، طلب منها أن تضع رأسها في حلقة الحبل المعلق في قمة النخلة الأم، نفذت الأمر، قلبت بصرها داخل عشة الخمس نخلات،جذب الحبل بأقصى قوته الحاقدة، تعلقت بين النخلتين، تخبطت ساقاها، جحظت عيناها الخضروان.

قفز شعبان من جوار نديرة على صوت صراخ فهيمة المتواصل الذي لم يبك أحداً من أزواجها الخمسة، جذب سرواله، تقلبت نديرة، سقط لوح خشبي من ملة السرير فوق الطشت النحاسي؛ مما أحدث ضوضاء شديدة غطت على ندب فهيمة، استيقظت نديرة، رأته، يرتدي جلبابه، وهو يلعن "الله يحرقك ياعجورة أنت، وفهيمه في يوم واحد".

مالت نديرة بجسدها فوق كتف شعبان، نزلت من فوق السرير"أنا هاقول للاسطى سمير، يعملنا أوضة نوم برنسيسة "

اشتد غيظ شعبان، نزع يدها من فوق كتفه، هرول إلى عمته التي جلست في وسط الحجرة تلعن عجورة..

"مافيش غيره هو اللي عمل الخراب ده ،أنا هاوديه المركز "

"الحقي يا فهيمه، شعبان اتكهرب ، وهو بيبني عمارة الحوشي!".

انتهز فرصة انشغال فهيمة بشائعة تكهرب شعبان، وجرجرها لنسوة حي السقاري، وصعد إلى سطح فهيمة ،كسر بعض السعف الذي يسقف حجرة الخزين، وأحدث كوة بقطر جسده، نزل منها إلى حجرة الخزين حطم صوامع تخزين الغلال، كسر جرار المش،أخلط الجاز بالزيت ،مزق الغرابيل والمناخل،ثم اقتحم حجرتي وقبّلني عنوة، ثم صعد مرة أخرى .

"بعد ما نجحت في الدبلوم ، فوجئت بأبي الأول على المحافظة ، كان ممكن أحقق حلمي، وأدخل هندسة الكترونيات؛ لكن المصاريف،أجرت أوضة في بيت الحاج قمر (لأنه على ناصية الشارع الرئيسي للحي كله)، وفتحتها محل لتصليح الأجهزة الكهربية بالليل ،أما بالنهار استمريت صبي تحت أيد شعبان،لأن المحل كان بيلم إيجاره بالعافية، ولآ يمكن استحليت شتيمته؛ علشان أكرهه زياده وزياده".

أنا كنت متأكده إنه سوف يتخلص منها،إنه أعلن وفاتها منذ سبع سنوات ،"فترة هروبها "، لن يسمح لها بهدم التاريخ الذي صنعه لنفسه من جديد ،وجودها سيعيد فتح دفاتره القديمة ،لكن لماذا لم أمنعه ؟ راقبته وهو يقتلها، بل تلذذت بالمشهد،في كل مرة كنت أمر بعشة الخمس نخلات، أسمع تأوهات، ضحكات الرجال، ثم تخرج عارية،تتسلق النخلتين

الملتصقتين ،تدخل في هيستريا الضحك ، تتعلق بقضيب البلح، تهزه بأقصى قوتها حتى تفرغه تماما، ثم تـسقط في نوبـة مـن البكاء، تتفلطح فوق الأرض،وتنام عارية ،لا أنكـر أن مـوت عائشة كان رغبة تطاردني، ربما لأنها تذكرني بـذاتي؛ فـأقول لنفسي "ليس كل بنات الحوش عاهرات، والعكس صحيح".

" ما قتلتش مراتي علشان هربت مع غوازي الموالد ؛قتلتـها علشان خسرتني، ووقفت العمل في عشة الخمـس نخـلات، وكمان، سابت لي بنتين مش متأكد أنهم ولادي، قلـت لازم أقتلهم قبل ماأهرب ع أي حتة استخبى فيها لحد مـا الـدنيا تهدى، هربت ع اليمن ،كات مليانه فلوس وما رجعتش منـها إلا بعد الحرب ، نصحني سمعان الراجل اللي مربيني وقـال لي: البنات فايدتهم أكتر من الحمير اللي بتجر عربيات الكارو" خد هو البت الصغيرة عيشة اللي جات لها سخونه وهي حتة لحمه حمرا،تقلت لسانها، بس كان جمالها جبـار ،يخليـك متـسمر قصادها العمر كله، وما تزهقش، زي ما تكون عروسة البحـر بعنيها الزرقة وشعرها الدهبي المموج (علشان كده متأكد إنهـا مش بنتي) ، طالعة تصطاد بضحكتها كل رجالة الأنس عشان تغرقهم في البحر مرة واحدة ".

"الناس مش هاتعايرك؛ لأنها خرسا، وهي مش ها تشتكي لأني هاعوّدها من صغرها على الجو ".

جدد لها عشة الخمس نخلات بعدما درها لمدة خمس سنوات، أما البت الكبيرة كانت عيّانة و كان شكلها عكر،بصراحة شبهي قوي ،يمكن عشان كده سبتها تموت، أصلها مش هاتفيدني في حاجة ".

خرجت من ورشة الأسطى سمير بمزاج رائق ،لأني فضضت آخر نقطة دم في غشاء رهبانيته الأبوية آخيرا أخضعته تحت سلطان الرغبة، والجمال، ولكنني لم أعلم أنني تسببت في قتله ببطء، وأنا في طريقي إلى حجرتي، استعدت مشهد قتل عائشة، عندئذ بصقت على كل مشاعر الأبوّة المتعفنة،صممت الاعتزال في حجرتي بعيدا عن عالم علاقاتي الشاذة:ابتداء من عامل النظافة بالمدرسة، بائع البوظة الذي كان يشبه الممثل الهندي أميتاب (كان يمر في الحي كل يوم أربعاء)،ثم عجورة، ومنه إلى رجب الحوشي الذي يزلزل كرهي لنديرة، وآخيرا الأسطى سمير الذي كان بمثابة الأب الروحي ،اغتظت من نديرة عندما رأيتها تنتظرني كالعادة بجوار الباب،" كنت باشتري مجموعة كتب جديدة لدكتور باهي ".

كنت أود أن أجيبها بما تكرهـه "كنـت عنـد رجـب الحوشي"عندما تسمع اسمه تتوقف كالعذراء صامتة، فتنـصهر شيئا، فشيئا، أراقب الخوف الذي يعتصر لونها الوردي، وقبـل أن تنفجر تدخل إلى حجرة شعبان الذي يجلـس الآن حـول مائدة عزرائيل، أراقبهما من خلال شباك المنور،تجلس بجـواره كأنها تجلس إلى كرسي الاعتراف، تحكي له كل الأحداث عدا مايتعلق بي، تضع ساقيه المتورمتين في حجرها ،تبدأ تهدهـدهما كأنهما طفلين توءمين ،ويبدأ هو يجتر حياته، كأنها فيلم درامي مأسوي، اليوم يحكي مشهد النهاية.

"زارني الموت أمبارح "،قالها شعبان وهـو يخفـي آلامـه ،ويجفف عرقه البارد"أمبارح الفجر سمعت صوت ع البـاب، دقات خفيفه، بس رجتني، زحفت ع الأرض لحد ما فتحـت الباب، وشفته كائن نوراني بيطول كل مارفعت عيني علـشان أشوف ملامحه، يطول كأن طوله ملهوشي حدود، ملفوف في شال حرير أخضر ،سألته وأنا مش خايف، ولا حتى مستغرب "أنت عاوز مين، قالي مش عايز إلا إنت".

عندما دخلتْ الحارة، توارت الوجـوه مـشمئزة خلـف الأبواب المؤصدة، تعالت الشتائم الأبواب تفتح و تغلـق مـع ضحكات ،وتعليقات فاضحة، عدا وجـه أكلتـه النحافـة،

فمسحت منه كل مظاهر الجمال، ورغم ذلك ممتليء بابتسامة عفيفة، ورقّة متناهية، اقتربت منها، ارتجف جسد عائشة، تقهقرت، صرخت بهستيريا، أشارت بيدها،ربتت بطة فوق كتفها"أبوك رجب الحوشي يمتلك نصف الحارة، أنت موجودة في ملكك ".

انفجرت باكية، احتضنتها، مسحت فوق رأسها، تهاوت من شدة البكاء فوق الأرض، جلسا معا فوق الأرض كأنهما يتضرعان.

سألت بطة في اليوم الذي زرتها فيه يوم زواجها من الاسطى سمير ، " ما الذي يجعل امرأة مثلك ملازمة لقسيس ، مهيئة لتكون راهبة، لولا رغبتها الملحة في الزواج ، تتبنى امرأة مثل عائشة معروفة بنشاطها الداعر ،منبوذة من نساء الحي كله، وأكبر منك بخمس عشرة سنة ؟

"عائشة كانت تمثل بالنسبة لي امرأة استثنائية،متحررة من كل شيء بما تعني هذه الكلمة من حرية ،أما أنا أجدني امرأة مثقلة بكل القيود الجسمانية والروحية ، دائما ما كنت أرقب جسدي أمام المرآة وهو يذوي،ولا أجد له عملاً غير أنه عالة على روحي ،كان ثقيلا بالنسبة لي ،قبيحاً، وددت لواستخدمه،

استنفده كما تفعل عائشة ،لكن عندما استحارت بي ،عرفت مدى المأساة التي تعيشها، إنها أبدا لم تكن حرة، لم تذق طعم الحرية لحظة واحدة،سُرقت منها كما يُسرَق جسدها ؛عندئذ أيقنت أن جسدنا مقدس يجب ألا ننتهكه، لأنه يحتوي بصمة الرب في داخلنا،إنه يحمي الروح ".

٥

اجتمع رجب بأهل الحارة سرا عند الحاج قمر (بصفته شيخ البلد) خوفا من أن تسمعهم فهيمة.

" الحارة دي عاملة زي جُحر التعبان،لو الواحد نـــام مـــع مراته ، اللي قصاده يسمعه ..لامؤاخذة! "

انفجروا ضاحكين ،تمثل الحاج قمر الجديّة، لكـــن رجـــب الحوشي بعصاه في صدره..

"طول عمرك بتاع نسوان، يابو الفراخ العيانه ،هي مراتك انتحرت من شوية زي ما بيقولوا!"

اقترب رجب الحوشي من عجوره"لما الحارة هاتتفتح ســـعر البيوت فيها هايولع، وممكن اشتري منـــك الأوضـــة بـــسعر ماتحلمش بيه،وبكده تحصل معلمك وتسافر تجيب لك قرشين "

شذره عجوره بعينين تطفحان بالغيظ المعتق بعدد سنوات عمره.

"معاك حق!، ماإنت اشتريت نص الحي كله، ربنا يـــرحم الكارو، وقفص الفراخ العيانه! "

انحرف رجب بكتفه"مش أحسن من خطف النسوان؟"

همّ أن ينقض عليه، لكزه الحاج قمر."أصل رجب بيقـــول أنك خطفت بنته"

انقطع الحديث فور دخول نديرة بصنية الشاي ،اختطفهـــا الحاج قمر منها، نظر لها نظرة حمراء زحفت إلى الداخل، وهي تودع جدي بنظرة شك،"كنت خايفه إن البيت يــضيع وأنــا عارفة قيمة البيت بالنسبة لشعبان عمره ماكان له بيت، ونفسه يمتلكه،يمتلك البيت اللي وساه في أيام عذابه ،كان بيتــشكي لحيطانه،علشانه أتغرب، نفسه يبنيه بأيده وبالنسبه لي، لوضاع، هاضطر أعيش مع أبويا والعِيشه مع الحاج قمر كارثــة بعــد الحنان اللي عشته في حضن شعبان، لازم أكتب له،ياجي يلحق البيت "

فجأة اقتحم رشوان مجلسهم، التقط كوب الشاي من أمــام رجب، وقذفه في وجهه، بدأ يصفق بكلتا يديه، وهو يغني :

عيشة يا عيشة يا أم الخزام اللاوي

عيشة من ضيقها طق العسل من ريقها

يسلّمك يا عشيقها بيضا والخد مساوي

أشهر رجب سكينته في وجه رشوان " لــو ماخرســتش، هاقطع لسانك بالسكينه اللي في أيدي ".

انقض عليه عجورة حوّله غضبه إلى وحش، بـدأ يكيـل الضربات لرجب حتى أسقطه فوق الأرض ، دفعه بركلـة ،ثم انتزع منه السكين،سلطها بعنف فوق رقبة رجب "مش كفايه دمرت حياته إنت وبنتك،بس أنا هأعرف أزاي انـتقم منـك ومنها"-

رفعوه من فوق جسد رجب الذي خـرج وسـط حمايـة الحرس الخاص ، وهو يصرخ"بكره تاجيني، زاحف"

جلس عجورة بجوار رشوان على الأرض، تأمـل جلبـاب رشوان الممزق ،نادى لنديرة ، استعطفها أن تحضر له جلبابـا مكويا من ملابس شعبان، حاول عجورة تهدئته،قبّل وجهه، ثم أعطاه كوب الشاي الذي كان يشربه فقذفه في وجهـه، هـو يعاود غناءه :

عيشة يا عيشة يا أم الخزام اللاوي

"اللي فاكره عن طفولتي مشاهد قـصيره، باهتـه، شـيخ الكتّاب ،معلمة الفرنساوي ميري اليهودية اللي أبويـا طمـع فيها،اتجوزها لمدة شهر ،وبعد كده هاجرت على فرنسا ،كنت عايز أهاجر معها،كنت عايز أهرب ،كان أهل الحي ماسميينـه رشوان الفرعون ، كان بجسمه العمـلاق يـرفعني للـسقف، ويسبني أقع، وهوبيضحك بجنون ،قبل ما اتـصدم بـالأرض

يلقمني بدراع واحد عامل زي الصخر، ورثه عن أبوه فتوة حي السقاري،زى ما ورث الحي (من الشيخ السقاري)اللي قـــدر يحكمه بالحديد والنار واللي وصلت أملاكه من جامع السقاري لحد المقابر اللي ورا صيدلية الراهبات ،ومرة واحده يقع كـــل الهيلمان ده تحت إيد سمعان الحوشي،لسه محتفظ بنص العصاية اللي انكسرت على أيد سمعان الحوشي اللي احتل الجرن ،وبنى فيه عشش للغجر، ولما عايرته تحت وجع الضرب،، اتـــسبب في دخولي مستشفى المجانين لمدة تمن سنين ".

* * *

"كان نفسي تطلع أبويا بحق وحقيقي؛ كان نفسي يكون لي أب حتى ولو كان مجنون، كنت بهرب من الحارة، أكتم نفسي من ريحة الشعر المعطن بسيلان الغريزه، أفضل أجري لحد مـــا أقف قصاد الجامع بسوره الحجري، وعمدانه الرخام أشد مـــن جوايا زفرة؛ كأنها زفرة الموت، وأسأل نفسي "- لوكان المتبرع الخليجي اللي بنى الجامع من جديد ، صرف على تعليمي لحـــد ماتخرج من كلية الهندسة، وهاجر ؛كنت بقيت حاجة، كانت اختراعاتي هاتقلب العالم كله:- مش كـــان ســـوابه هـــايبقى أكبر!،ما أحنا ممكن نصلي في أي مكان، آه لو طلعت أبويـــا! كت ورثت البيت اللي عامل زي القصر المهجور؛كنت بعتـــه واشتريت خشب وبنيت مقاول وكنت ممكن أتجوز نديرة ،أنا

عارف إيه عاجبها فيه ! تلاقي أبوها غصب عليها زي ماعمل في خطوبتها لرجب الحوشي، أصل الحاج قمر عينه زايغة ،يادي البخت الاسود جبت سيرة القط، جه ينط ، أدي الحاج قمر جاي من صلاة العصر، وبليل راقد ونايم عند الحوش؛ طبعا عاوزني علشان أشتري لوازم البيت ،وأساعد نديرة في المذاكرة، "بتدخلها مدارس ليه مادام هاتجوزها؟!".

"علشان تعرف تقرا جواب جوزها،لو سافر هنا ولا هنا، ماتكنسشي ورقة مهمة، وبعدين لما تخلف تبقى تعلم عيالها على قد ما تقدر ،كفاية عليها شهادة الإبتدائية ،لو كانت ولد.."بس قعادي قدام نديرة أبص في وشها بالدنيا وما فيها.

فجأة امتنعت نديرة عن الذهاب إلى المدرسة والخروج من المترل، وأصبحت لا تغادر حجرتها، حلت محلها بطة التي تصغرها بست سنوات، قامت برعايتها جدتي (بعد وفاة أمها أثناء ولادتها، وعاش أبوها مع ابن أخيه سمير،يعلمه مهنة النجارة، مهنة أجداده، ولكي يجبره على الزواج من ابنته،حرمه من ميراث ابيه، وكتب كل شيء باسم بطة، البيت، الورشة، حتى المخزن بما فيه المعرض الذي جدده من خلال ابداعه، وتطويره لمهنته يقع ضمن أملاك بطة) غادرت نديرة المترل في

صحبة شعبان الذي كان يشتعل غضبا عندما يرى عجـــوره في منزل الحاج قمر،ولكي يبعده عنها، اتخذه صــبيا لـــه، لكـــن عجورة ظل مترددا على المنزل، يذاكر مع بطة، لم يسلم منـــه شيئا عدا راديو ناصر الذي تسبب في طرده من منزل الحـــاج قمر حيث حطم عامود الفحم، نزع الأسلاك، وكسر علبتـــه، جره من رأسه، وألقاه في حجر أمه كلثوم..

"أنا عايز راديو بدل اللي ابنك كسره !"

صمت الجميع بمجرد سماع صوت فهيمة ،انفض الجمـــع، الواحد تلو الأخر، لم يبق سوى الحاج قمر الـــذي انـــشغل في إصلاح هندامه، برم شاربه مع تجميع أطراف عباءته"هاتي يـــا نديرة، لعمتك الشاي"

بدأ يفكر كيف يقنعها بالمبلغ الذي اتفقوا عليه تعويضا عن بيتها الذي سيضيع في الشارع، لوتم فـــتح الجهـــة الأخـــرى للحارة،.

"عاجبك عمايل ابن الداية؟"

تنفس الصعداء، انحنت نديرة ، وضعت الصينيه أمام فهيمة

" أبكي عليه وقولي ده كان بيحب البوري "

زحفت نديرة هاربة من الأغنية، عيناها السوداوان تموجـــان بالخوف ، تقلص وجه الحاج قمر ؛ فصار مثلثيا زفر، أخـــرج من جيبه علبة الدخان،و لف سيجارة

"ابن كلثوم باع أوضته لرجب ،قال إيه ها يـــسافرأمريكا، قال إيه هي اللي هاتقدر مواهبه؟!"

بدأ يبرم السيجارة بين أصبعيه الإبـــريتين"بـــصراحه الـــواد عبقري، قدام عيني خلى حتة حديده مصدية، وشوية ســـلك تنطق وتقول هنا القاهرة ولآ راديو ناصر"

"أمريكا ها تعمل بيه إيه ؟،"

ابتسم من منظر فهيمه، فظهرت لثته السفلى فارغـــة مـــن الأسنان "هي لسه الحرب اللي بينك وبينه شغاله؟"

" إياك يروح في بلوى،ده كان داير ورا البت بنت شعبان "

* * *

وهو منهمك في تعريب بعض المصطلحات الأجنبيـــة الـــتي تزخر بها المحاضرة التي فرّغها منذ دقائق ، اقـــتحم الـــسكرتير مكتبه، رفع الدكتور باهي طرفه، ثم دفسه بنفس الـــسرعة في أوراقه، احتضنه السكرتير من الخلف ، وبخه بنظرة احتقار، فرد عليه السكرتير بنظرة غاضبة "على فكرة الأنـــسة جيـــداء في الصالون".

فتح الباب الخارجي باحثا عني، تسارعت ضـــربات قلبـــه عندما رآني جالسة فوق السلم لمدخل الفيلا الخارجي ،ضحك في عصبية "يا بنتي إنت دايما غاويه سلالم "

احتضن يدي، أدخلني نفس الصالون، ارتعد جسدي مـــن شدة البرودة، لكنني ظللت صامتة، أراقب قطرات المطر الـــتي تسيل فوق الشباك الزجاجي،ذهلت بعد دقائق ،اشتعل عقلـــي بالأسئلة المحيرة، إننا في نهاية الترم الثاني، في فـــصل الـــصيف، العرق الذي كان يغطني في الخارج،تجمد فوق جبـــهتي،أمـــر السكرتير بأطفاء أجهزة التكييف، تناولت الكأس الذي قدمه الخادم، لامست يده ركبتي ،ضممتها معا ، دقات كعبي تـــدق بانتظام .

"قبل أن نبدأ لابد أن نتفق على الشرط".

امتلأت عيناي بالخوف "ما هو"؟.

"الطاعة العمياء ".

قفز من مكانه، جذب يدي، تحرك بي إلى الـــداخل "هـــذا المكان لايصلح لمناقشة مثل تلك الأمور"

ارتجف قلبي، ثبتُ قدميّ في الأرض، جذبني بقـــوة " نحـــن اتفقنا على الطاعة العمياء ".

رأيتني انتقلت من عصر العولمة إلى العصر الحجري في لحظـــة واحدة، خلف حوائط الصالة الأسمنتية المدهونة على أحـــدث مودرن، حوائط من الطوب اللبن القديم ،كأن عمرها قرنين من الزمان، مسقوفة بـــسعف النخـــل الـــذي يتغلغـــل داخلـــه حشرات،وطبقات من خيوط العنكبوت التي أكلت ثلاثة أرباع الحوائط ، يغطي أرضيتها مصطبة متراص فوقها أكـــوام مـــن الكتب أسفلها كانون (عبارة عن أربع قوالب :كل قالبين فوق بعضهما،البعض بشكل متوازي بينهم، يشتعل الحطب) بجواره براد الشاى، أواني فخارية، تأملت المنظر كله كـــأنني داخـــل لوحة كلاسيكية من القرن التاسع عشر .

"أنا هنا ألغي كل الفواصل الزمنية، أو المكانية، أخلـــق عـــالمي بنفسي، وأفرض قوانيني على الناس" .

اعتليت المصطبة، فوقها كتب بكل لغات العالم،بعـــضها مـــن مؤلفاته،بدأت أتصفح بعضها،انتزعها مـــن يـــدي وأجلـــسني القرفصاءأمام الكانون، كأنني في معبد هندي "لماذا انتزعها من يدي،لماذا لم ينشرها ، أو حتى ينوّه عنها في الصحف؟"انحنيت، التقطتُ إحدى الحشرات الزاحفة التي تتحـــرك في حريـــة في جميع انحاء الحجرة .

"والدتك اضطرت لفعل مافعلته، لو لم تفعل ذلك، لكـــان مصير كما الشارع، وظل والدك مسجونا"

ابتسمتُ، تحولت ابتسامتي إلى ضحكة هائجة ،أعتصرها في كفة يدي،ثم لعقتُ شفتي السفلى.

"أمي، أبي ياها من أضحوكة؟!"

* * *

"عمتك كانت عارفة أن البيت طالع في الشارع "

"قبل ما بيتي يتهد، لازم أهد كل بيوت الحارة اللي اشتراها رجب الحوشي"

نزع شعبان ملابسه في وسط الحارة، وهوى بالفأس علـــى الحائط المشترك بين بيت فهيمة وحجرة كلثوم.

"أنا كت مأجله بيعه لرجب لحد ماترجع من الغربـــه ،لأني ناوية أهرب من لسان عطية".

قرر شعبان أن يشتري البيت بما ادخره من سنوات الغربـــة الثلاث، جدد بناءه بمساعدة نديرة التي كانت تحمل له الطوب، وتجهز له المونة، و ما تبقى من أمواله اشترى به خشبا مسلحا، وعندئذ قرر أن يصبح مقاولا معماريا دون أن يعتـــزل مهنـــة البناء،كان يردد في افتخار "بتخليني فوق كل البشر،باشـــوف

نفسي زي سيدنا الخضر اللي بنى الجدار للعيال اليتـــامى،أنـــا كمان بنيت جامع السقاري بدون أجر ،أنا هاموت والجـــامع هو اللي هايفضل ".

اقترب باهي من "الكانون" الذي تـــوارت نيرانـــه خلـــف الرماد، تبخرت مياه البراد،، فأشعلها من جديد.

"في عصرنا هذا يجب أن نحدد المعايير التي نقيس بها القيم: لكل قيمة عدة معايير، قد تكون متضادة في بعض الأحيان ".

انتظر حتى هدأت النيران، غيّر مياه البراد ثم وضـــعه علـــى حواف القالبين العلويين "فمثلا قيمة الانتماء لمكان ما، وليكن مترلك: موطن ولادتك، ذكريات طفولتك، مرجع ســـنوات حياتك، ومع ذلك تضطرين إلى مغادرته أو تطردين منه ،بل قد تجبرك الظروف على عدائه بسبب زوج أو ميراث،وينطبق هذا على الأشخاص: تتركين الأب، وتنتمين إلى الزوج، وقد تقتلين الزوج بسبب عشيق لم يقدم لك سوى حفنة من القُبل ".

تعلقت نديرة بيديه المقيدتين في الكلبـــشات ،انـــدفعت في حضنه، طلب منها أن تظل تدافع عن البيـــت، منعـــتني مـــن الذهاب إلى امتحان الاعدادية.

"البيت أهم من الشهادة"

لبدت في المدخل،بمجرد أن رأت رجب الحوشي في صحبة رئيس الحي، يتقدمهما البلدوزر، نزعت ملابسي في عنـــف، وصرخت بأعلى صوتها "رجب الحوشي ، انتهز فرصة غيـــاب الراجل، واقتحم على بنتي القاصر، وأبوها في السجن"

٦

" إذن الانتماء لمكان ما، يجب أن نقيسه بمعيار يحقق طموحاتنا، وهذاينطبق على الانتماء بمعناه الشامل".

انشغلت بكتاب الفتوحات المكية ،قرأت في سريرتي...

"ولو كان غيري لم يصح وجودها إذا أحكمت نفس الشروط انفرادها".

"رفض عمي أن يأخذني مثل أختي،أن أعيش معه (لأنني رفضت أشهد ضد خالي،أنه هو الذي قتل أبي)، تركني وحيدا بمفردي في هذا المترل الذي تتعدى مساحته سبعمائة مترا (لايزوره خالي إلا ليلة واحدة في الأسبوع) لم نشغل فيه سوى هذا الركن الصغيرالذي كان أقل حقارة من زريبة البهائم التي فُرضت على أمي منذ صغرها ،أو ربما قبل ولادتها، فعندما تتأملين يديها، تجدينهما موشومتين بروث البهائم الذي تسبب في لعنتها للأبد، في مثل هذا اليوم دخلت كعادتها تحلب إناث البهائم ،رأت الحجر الذي أحضره والدها من الغيط كي يحصن به باب الزريبة من اللصوص لثقله ،يضيء بكل ألوان الطيف التي غطت على القنديل الذي تحمله في يديها، حملقت حولها،

رأت ظله يملأ الجدران، فصرخت هستيريا، التف حولها أبوها،أخوها، باقي الخدم ،اتفقوا على التخلص منه " الحجر ده فيه عفاريت بتتلعّق للبهايم "

ذهبوا إلى مترل الخواجه ميشيل :هذا الرجل يشتري كل شيء، حتى النساء، بالفعل وجدوا المترل محصنا بصفوف من النسوة، والرجال حتى الأطفال كل منهم يحمل شوالاً منتفخا بأحجار مزخرفة بكتابات قديمة وألوان زاهية،بالأضافة إلى الأواني النحاسية الفخارية، ومجموعة من الصيادين يلتفون حول قفص حديدي بداخله نسر ضخم يلتهم ثمانية أزواج من الحمام ،الكل يدخل حاملا شواله،ثم يخرج قابضا يده فوق عدة قروش، تزغرد وجوههم من السعادة "الخواجة ده عبيط ، سايب بلده الجنة، وجاي هنا يلم زباله ؛طيب ما يادلنا".

عندما علم الخواجة بقصة الحجر، صمم أن يذهب بنفسه، حمل حقيبة معداته ،بعدما فرغ من فحصه ثلاث ساعات، رفض أن يشتريه إلا في حضور جدي العمدة، وكل رجال القرية ،أفتى كبار شيوخ العائلة ببيعه بأكلة سمك، رفض الخواجه "أرفعوا السعر شوية ".

جلس جدي وضع عصاته ذات المقبض الفضي في حجره،ثم تأمل ساعة جيبه الذهبية في صمت..

" تشتريه بتمن فدان أرض، نوزعه ع الغلابه "

وافق الخواجه، حضّر عربة عسكرية في صخب موسيقى عسكرية، نقل الحجر، وانتقل معه إلى الأبد، لم يترك سوى سخريته التي تناقلتها ألسنة أهل القرية عندما أرسل خطابا للعمده يقول فيه:"العمده البغل، يسلم لي، على عيلة التور،الحجر يشتري بلدك واللي فيها "

يجب أن نختار المعيار الذي يحقق أهدافنا ،قد يكون هدفنا مدى المتعة التي سيتم تحقيقها من خلال ارتباطنا مع الآخر بعلاقة حب أوكره ، وقد يكون الثراء،الشهرة ، المجد ،الانتقام، التدمير "

* * *

دائما كنت أشعر بينهما بالغربة، فحبهما لبعضهما وصل إلى أقصى درجات الأنانية التي جعلتني أنفي عنهما لقب الأمومة والأبوة..

"إنت عارفه وش الباجور ده مزاج ،حتى لو اشتريت مية بوتوجاز، زي طبيخ أمك بالظبط اللي بيشبعني حتى من ريحته"

وضع شعبان الباجور بين فخذيه، وضع فوقه البراد، كلما انخفضت شعلته، زودها بالمكبس ..

" لما حتة أرض مساحتها مية متر،مربعة، وعرض واجهتها ستة متر ونص،يطلع منها كام متر في الشارع ،لوكانت مساحته ستة متر؟"

بالإلة الحاسبة بدأت أطرح، أضرب، أقسم، هكذا أكثر من ربع ساعة، و لم أتوصل للحل..

"أمال بيعلموكوا إيه في المدارس؟، نفسي تطلعي مهندسة ،ها صحيلك أمك اللي طالعه من الإبتدائية"

تحرك بخفة إلى حجرها ،قفز فوق السرير،أمسك بضفيرتي شعرها الأسود الذي يغطي جسدها ،حرك الخصلات فوق وجنتيها المكتنزتين، تحسس الثلاث غمزات ،عندما برقت عيناها أسند رأسها اليمامية فوق صدره، طلب مني كوب ماء ، ارتشفت رشفة واحدة "كل بيت يطلع منه تلاته متر في الشارع، تضربيهم في سته، تبقى تمنتاشر ،أما النص في تلاته بواحد ونص، تجمعيهم عليهم، يساوى تسعتاشرمتر ونص يطلعوا في الشارع، تنقصيهم من مساحة الأرض يطلع الصافي تسعة وسبعين متر ونص ".

احتضنها، أصر أن يشتري لها فرخة مشوية جائزه لها ،رغم انتصاف الليل الذي يكوي الأجساد بالسيول ،بعد ساعتين

حضر موحولا، أمرني بوضع الطبلية فوق السرير حتى لاتـــبرد، أجلسها برقة ثم دثرها بالبطانية، لم يظهر منها سوى فمها، وبدأ يطعمها بيديه ،كأنها طفل رضيع، تجاهلني تماما لولا أنها وضعت الطبلية في مواجهتي، وأخرجت يدها من أسفل البطانيه لكـــي تعطيني أكبر قطعة في فمي، "أنت عارفه إني كنت ناويه أتجـــوز أبوكي شهر واحد، كنت متفقه مع جدك على كده"

تفلتها في وجهها، لطمني بأقصى قوته، أســـقطني أســـفل السرير، طفح الدم من أنفي، وفمي

* * *

راقب فقاعات الشاي الذي قارب على التبخر، و لم يتبـــق سوى رشفات في قعره

"يجب أن نفتخر بخطايانا كما نفتخر بمزايانا"

حملق في وجهي الذي تحول إلى حبة ليمون ،ثم خيم علينـــا الصمت "- بعدما نفتني نديرة من مملكة أمومتـــها، و حملـــتني ذنب استئصالها للرحم، ومعنى ذلك انقطاع أملها الوحيـــد في انجاب الولد الذكر الذي كانت تنوي أن تقدمه لشعبان كهدية تعوضه به عن آلام اليتم ، والقطيعة،- لم يبق لي سوى مـــترل الأسطى سمير الذي كان بمثابة الأب الروحي لي ،كانت أعوامي

الثلاثة عشر مرسومة في حنايا مترله الذي كان يتحدث بلغة الأنجيل، ويتنفس صور القديسين والشموع التي تزينهم حتى أيقونة الصليب الخشبي التي أصبحت بمثابة عنوان لهذا المترل، نحتها تكفيرا لعقدة الذنب تجاهي ،فقد ارتبط نبض حياتي به، حكى لي عن القديسين، عن السقاري ،وحكايات فهيمة عن الجن ،والعفاريت ،عن تاريخ الحي وعن سبب تسميته،شاركني كل الألعاب الطفولية ،علمني القراءة، والكتابة حتى أساسيات مهنة النجارة، شاركته في صناعة أول مكتب لي ،مازلت محتفظة به رغم صغره، وقمالكه، جذبني بملامحه الغربيّة، العينين الخضراوين، والوجه المشبع باللون الناري، وقامته الرشيقة التي أعتقدت فيها ألها فردوسي القادم في المستقبل، أو ربما لأنه يشبه أبي، فردوسي المفقود، توحدت معه، سمعت حكاياته عن تعذيب عمه له، واستيلاءه على ميراثه ،وبرر سبب رفضه لبطة التي تحولت إلى المذبح الذي يحمل ظلم أبيها، وميراثه المغتصب، كنت أقابله في المخزن الذي يمثل البدروم في الورشة، يخزن فيه الخشب، أكواما من النشارة حتى يتم التخلص منها في الجرن، ارتشفت معه أول رشفة بيرة، ترششتها في وجهه، رفعني فوق صدره حتى ينفضني،كما كان يفعل معي وأنا صغيرة ،عندئذ انتويت أن أتفل فوق كل مشاعر الأبوّة المتعفنة بعد الذي شاهدته في عشة الخمس نخلات ،ومقتل عائشة "يجب أن نشبع

رغباتنا إلى أقصى مداها ،ربما تتسبّب في مقتلنا، لكن من المؤكد أن الهروب سيقتلنا"، قالها، وهو يصب آخر قطرات سوداء من الشاي الأسود، ثم قام بتحلية الكوبين، ناولني الكوب الصغير "من لم يجد في نفسه الكفاءة لإقامة علاقة تقوم على الأشباع الكامل، عليه أن يختار بين فك العلاقة، أويستحق الخيانة"

قذفتُ الكوب في وجهه، تقيأت "أنت نسيت،بدلا من التحلية بالسكر، وضعت ملحا"

ضحك ،ابتلع قطراته في رشفة واحدة، ابتلعها في استمتا ع"أنا هنا أكسر كل العادات "

ارتشفت الماء كله، صب كوبا آخر، ترددت، ثم أغمضت عيناي، لكزني بالكوب في يدي، وقال:"طول الوقت تقومين بتعطيل قوى حياتك، لن تموتي إذا ارتشفت الشاي المملح، ولن تموتي إذا مارست رغباتك بحرية ،لا تحكمي على أفعالك إلا بعد حدوثها".

ابتلعت رشفة، وتلوتها برشفة ماء" أنا أكثر الشخصيات التي لم تحكم على أفعالها لا قبل حدوثها ولا بعد حدوثها، مارست كل رغباتها بطريقة منحلّة " تأملت كوب الشاي"كوب الشاي هذا، يذكرني بطبق الرز باللبن الذي فحصته كل نسوة الحارة بعد منتصف الليل "

هرول عجورة خلف كلثوم حاملا الطبق حيث اختبأت في حجرة شعبان، أسفل السرير الذي ينام فوقه، هم أن يقـــتحم الحجرة، منعته نديرة،وأخرجته خارج المترل"وطـــي صـــوتك، معلمك مش طايقك؛ عشان أجلت ســـفرك، وهوهايـــسافر لوحده".

ناولها الطبق، أقسم عليها أن تتذوقـــه، ابتلعـــت ملعقـــة، أغمضت عينيها "والنبى حلو! "

اشتد غيظه، فانتزعه من يدها"ني يطسك، يامنافقه، ده كله ملح".

هرول من أمامها، دق كل الأبـــواب، اســـتيقظت نـــسوة الحارة، اجتمعن أمام حجرة الحاصل ، بدأت همساتهن تعلو حتى تحولت إلى مباراة، أيقظن شعبان(قرب آذان الفجر) جذبه مـــن عنقه، وأطفأ سخريتهن بخرطوم من السباب والشتائم النجسة، أغلقن عليهن الباب ،سقط عجورة فوق الكنبة "طول عمـــرك عاملني تمزيئة الحي كله ،وديما تستهزأ بيا، وبتناديني يـــا ابـــن الدايه؛ ما تشبهش أمك اللي رمتك،وأنت رضيع، وأتجـــوزت المأذون اللي طلقها من أبوك، وهو عيّان".

اشتدت ثورة شعبان، دفعه بأقصى قوتـــه، جـــره خـــارج الحارة، "مش عايز اشوفك في الحارة حتى ،وأنا مسافر ".

نزعت فهيمة لفافة شعبان، ثم ربطـــت عــضوه الـــذكري بالخيط..تأمل الطبيب التهاب مثانة الطفل وورم قضيبه الطفولي ،ثم قاس درجة حرارته التي تعدت الأربعين بشرطتين..

"إنت مش فهيمه!إنت هيمه؛ازاي تحبـــسي بـــول طفـــل رضيع؟"

"خفت أحسن ينجسني، وأنا متوضية لصلاة العصر،الواحد مش قادر كل شوية يتوضى في البرد ده"!!

٧

تأملتُ وجهه المخروطي،رأسه الكبيرة لدرجة يمكن تقسيمها إلى رأسين: أحدهما إلى الأمام، والأخرى للخلف،معلقة فــوق غصن قصير من الحطب ،ابتسم كأنه فهم المغزى "حتى الجمال لابد أن نبحث له عن معيار جديد، فمن حق كل انــسان أن يرى نفسه جميلا ،فمثلا قد ترسمين مواصفات وجه بمقــاييس دقيقة للجمال الكامل عن طريق الكمبيوتر، وتطلبين من طبيب التجميل أن ينفذه لك، ماذا سيحدث؟"

تقلص وجهي، ابتسم الدكتور باهي" ومــع ذلــك هــل تعتقدين أن هذا الوجه سيبدو جميلا؟ فإن هذا الجمال الـــدقيق الذي اختاره الكمبيوتر،خرج قبيحا، وأنا أعتقد في الفلسفة التي تقول: الجمال في الوظيفة ،فجمال العين في قدرها على الرؤية الدقيقة،وليس لأنها خضراء ،أو صفراء، فالجمال الكامل يساوي القبح الكامل؛ لأنه في الحقيقة لا توجد صفة الإطلاق على أي شيء،على الأقل في حياتنا الدنيوية هذه،أنا مثلا أرى نفــسي جميلا، أو من حقي أن أعتقد أنني جميل،فإن جمالي في عقلــي، والدليل على ذلك أن فتاة جميلة مثلك ،قبّلت يدي في المدرج".

وأنا أهرول إلى المدرج لكي احتجز مكانا في "البنش الأول" كي أكون في مواجهته، اصطدمت بجسام يحمل زميلا لنا يضاعفه وزنا، مع ذلك يهرول به إلى مستشفى الكلية، تعلق بصري بقطرات العرق التي تتكاثف فوق جبهته السمراء (رغم صقيع الشتاء) عندئذ غيرت وجهتي، وقررت أن أجلس في المقعد الأخير بل في مكانه.

"ابن عربي يقول عن الله في أوحديته القديمة في الأزل:إنه شعر بالوحدة ،حينما تجلى بذاته، وعى ذاته فأحبها، فشعر بالوحدة، فاشتاق أن يرى نفسه في صورة غيرية (كأن الله عندما شاهد جماله وبهاءه أراد أن يشاركه المخلوقات في الاستمتاع بهذا الجمال المطلق) أي أن لحظة الخلق لحظة جمالية".

تحركتُ بطول البنج الأخير، وسط تأفف زملائي،أدهس قدم هذه ،أحتك بكتف هذه ،أسقطت المرآة من إحداهن، فصلت الأجساد المتلاحمة، تعمدت إحداهن أن تمد ساقها في طريقي، فسقطت فوق وجهي في اللحظة ذاتها، نهضت، أسرعت نحوه ،كأن قوة مغناطيسية تجذبني إليه، صعدت المنصة، جذبت يده وهومستسلم لتصرفي غير المبرر،احتضنتها بقداسة، أغرقتها قبلا، كأنها يد قسيس، ظل ساكنا مذهولا في مكانه

وسط هرج ،وغضب الطلاب الذين رمقوني بنظرة احتقار، ثم خرج الواحد تلو الآخر، بين ضاحكا و مستغربا "أنت خامـــة جيدة، لكنك تحتاجين إلى منظومة برامج، تقوم بتجهيز عقلك، عندئذ ستصبحين إحدى العباقرة في النادي، لكن بشرط".

تعلق قلبي بلسانه .

"أنا مستعدة لكافة الشروط".

ابتسم، أخرج من جيبه بطاقة مدوناً فيها عنوتـــه، وأرقـــام تليفوناته"عندما تزوريني، ستعرفينه".

* * *

"أنا هاوكلك ،ولا هاوكل ابنك، ع الأقل شعبان هو ابـــن أخويا ،وملزومه بيه ،أما إنت لسه جميله وف عـــز شـــبابك، روحي اتجوزي، على الأقل تلاقي اللي يصرف عليكي"

لفته ثريا في إحدى جلاليب أبيه، اشـــتمت فيهـــا رائحـــة زوجها الذي تمتعت معه أكثر من عامين، هربت فيهما من بخل أبيها، وسلاطة لسان فهيمة التي طردهما في ليلة الدخلة عندما اعترض أخوها على فكرة زواجها من رشوان المجنون "ده قتـــل أبوه!".

كان وجوده في حياة ثريا بمثابة سحابة تمطر حبـــا وحنانـــا "بكرة يا بت يا ثريا، اشتريلك عمـــارة، أصـــل المـــدرب في

الساحة قال لي :"ها تبقى بطل كبير في حمل الأثقال، ده أنـــا بانزل طن أسمنت لوحدي"

احتضنته رغم العيون المتطفلة خلف الأبواب المتواربة "عمته أولى بيه ،أنا مش هاربي ابن راجل غريب، حتى ولــو كـــان ميّت".

قبض شعبان فوق حلمة ثديها، يجــرب أســنانه اللبنيـــة، ضغطتْ فوق أنفه كي تتخلص من ألم العــضة، لكنـــه ظــل يمضغها في عنف"إنت بتعاقبني؛ عشان هاسيبك ؛غصب عـــني، أنا ماقدرش أخدك معايا، ومأأقدرش أصرف عليك، ولاعلـــى نفسي، ماعنديش صنعه ولاشهادة ،أنا أتجوزت عشان ألاقـــي اللقمه والهدمه،كان نفسي مانفترقشي، إنت عارف أنا حبلت فيك تحت السما، مافيش أبوب ولاجدران ولا سرير،ع الأرض زي أمنا حوا، بس آدم سابني قبل الأوان ،أنا لفيتـــك بـــأغلى حاجة عندي هدوم أبوك،أنا عارفه إنك هاتبقى زيه بس مـــش هاتحبني زيه ".

أثبتت فهيمة في القضية الأولى،اللي صرفت عليها تحويـــشة العمر واللي استمرت تمن سنين: إن رشـــوان مـــش مجنـــون واشترت شهود، شهدوا بأن أبوه مات بسبب عركتـــه مـــع سمعان، وخرّجته من مستشفى المجانين،ورفعت قــضية تانيـــة

علشان تسترد أرض الجرن اللي كانت بتعتـبره حقهـا اللـي اغتصبه منها أبوه (أما قتله لخالها فكانت بتعتبره أمر يـستحق الشكر عليه)، وأتجوزته علشان تضمن المصاريف اللي صرفتها على القضيتين، وخدتني معاها، وعشنا في القـصر المهجـور، وفجأة دق بابها بنت أكبر مني ياجي بـاربع ،خمـس سـنين، عمرها ما كملش ستاشر سنة، لابسه لبس غجر، تعلق في أنفها حلقة دهب والوشم بـيملا صـدرها العريـان في جـبروت (اكتشفت بعدين إنه بيغطي جسمها كله)، شايله صرة جواها: مناديل،وايشاربات مطرزه ،بتنطق بكلام مش مفهـوم،نـصه طاير، فيزود جمالها اللي بيحل مـن علـى حبـل المـشنقه، وضحكتها اللي بتاخدك لتحت لحد ما تغرق، حـتى رشـوان خرّجته من غيبوبته، مشي وراها ،وتنازللها عن البيت والجـرن في الشهر العقاري، بالشهادة اللي صرفت عليهـا فهيمـة دم قلبها، طردها رجب اللي كان وصي على بنته ،زي ما طردت أمي من تسع سنين،كان عمري وقتها ماكملش سنتين ؛بعد ما أجبرت أبويا المريض على تطليقها"لّما تخف، وتقـدر تـصرف عليها، يبقي رجعها " أبويا ما استحملشي، مات، وقالـت لي (لما جات تتجوز من الشيخ عطية):" أمك اتجوزت المأذون اللي

طلقها من أبوك، وبكده تبقى ماتت في نظرك،وأنا كتّر خيري لحد كده، من بكرة تترل الشغل مع الحاج قمر "- في اليـــوم اللي عايرني فيه أبوكي ، لما فتحت راسه بقالب الطوب ،مـــا تزعليش كده، لولا فتح راسه ماكنتش هربـــت ،وماكـــانتْش جرتني فهيمة لحد بيتكم علشان استسمحه، بصراحة أنا كنت ناوي اشتمه قدام أهل بيته، بس لما شوفتك ،اعتذرت وبوست الآيادي، بس هوعرف ينتقم مني؛ وداني عند صـــانيعي ابـــن كلب، بس كله يهون علشان خاطر عيونك – جـــاتلي أمـــي وعرّفتني الحقيقة ،بس ماقدرتش أسامحها إنها سابتني،وســـافرت مع الراجل اللي رفض ابنها، لأنه بيفكره بإنه عاقر،لو كانـــت أتمسكت بيا،حتى لو كنا شحتنا وجوعنا مع بعض، كان أفضل عندي مية مرة من حياتي مع فهيمة ، ســـابتني وأنـــا رضـــيع لفهيمة اللي فطمتني من كل شيء، ماعـــدا الـــذل، والمعـــايرة باللقمة، وبأمي، ده أنا شربت شختها، لحد مالعنت نفـــسي، وكل الناس ،إنت الوحيده اللي رجعتني لربنا، ولنفـــسي يـــا نديره؛ علشان كده ماعرفتش أحب غيرك، حتى بـــنتي اللـــي عارف إنها بتكرهني، ومش قادر أعمل لها حاجة".

* * *

حاصرتني نظرات الاستغراب،والاشمئزاز، الضحكات المكتومة، والهمسات الأباحية من مجموعة الفتيات اللاتي هرولن بمجرد رؤية حسام الذي رجع لتوه من المستشفي، بعد ما أطمأن على صديقه، التففن حوله كسرب النحل،تراهن معه على حافظته الشعرية، بدأت الفتاه السمراء، فارعة القامة ذات العينين الأبريتين ،والوجه الكري ، يبدو أنها من نفس النجع، تجلس بجواره، تجهز له السندوتشات، تبيض لـه المحاضرات، تفهم جميع ايماءاته ،تصطحبه في ذهابه، وإيابه،وفي سفره ..

حسن منقلب تبدو عواقبه جاءت بشاشته عن سوء منقلب

قبل أن تنهي عجز البيت، تنفست حافظته الشعرية حتى وصل إلى البيت الرابع والخمسين ..

إن الأسود، أسود الغاب همتها يوم الكريهة   في المسلوب لا السلب

فارتفع صوت فتاة بضة من "شلة "البنش الأخير..

"أضحى التنائي بديلا من تدانينا.. "

قاطعها بضحكته الطفولية،ربط عمامته من الخلف، طالما آثارت دهشتي ،عندما يرتديها فوق بنطال جيتر وتي شيرت بلا أكمام (يبدو عليهما الذوق رغم تواضع خامتهما)نظر إليّ ،اضطربتُ في جلستي، أنشد حتى وصل ..

عليك منا سلام الله مابقيت صبابة بك نخفيها فتخفينا

غرست الفتاة السمراء عينيها المنحـــرفتين في وجهـــي، ثم عاودت الالتفات إليه .

"سأعجزك بامرئ القيس " .

تقهقرت بهدوء إلى البنش الأخير، قفز حسام فوق المنـــصة، جلس مقرفصا ،و بصوته العالي حتى ظننت أنه يريد أن يسمع الكلية كلها..

تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولاتبعديني من جناك المعلل

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي التمائم محول

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحول

صرعنه بحقائبهن، وانصرفن دفعة واحدة، اقتربت منه، وأنا في قمة الغليان "أنت تدّعي أنك يمـــيني، وأنـــت إبـــاحي في أشعارك!"

اقترب مني حتى ابتلعت أنفاسه، همس في أذني، وانصرف في تمهل "أنا أعشق الكلمة بكل سياقاتها ،لا توجد منطقة وسطى بين السالب والموجب".

" أنتِ الوحيدة التي وصلت إلى المرحلة الأخيرة ،اعتـــبري نفسك عضوة معنا في نادي صناعة العباقرة ، لدينا هنا طلاب من كافة المراحل، والمستويات ، بالإضافة لأصحاب الحـــرف المختلفة ،هنا نوفر لهم المستقبل الذي يتناسب مـــع قـــدراتهم " قالها الدكتور باهي ، بعدما أخبرني بـــضرورة تطبيـــق بعـــض البرامج فيما يسمي الفلسفة العالمية المغايرة ، فوجئت أن المرحلة الأولى مجرد فراغ ، استمر أكثر من شهرين لدرجة إنني نسيت نفسي ، ثم دخلنا في مرحلة المشاهدة ،وكانت بالنسبة لي ممتعة حيث شاهدت عروضا مسرحية، سينمائية،عـــدة معـــارض، ومتاحف،وحضرت الكثيرمن الندوات : كلها تدور حول مبدأ واحد"إننا في مجتمع استهلاكي يُصنفنا كمجرد سلع ،تتحـــدد قيمتها بمدى منافستها في الأسواق العالمية، والدولة التي تحتكـــر الأسواق هي الدولة التي تستحق القيادة، ولها حق الوصاية على بقية دول العالم ،اتخذت منهم حلفاء وهم سماســـرة لايهمهـــم سوى الربح "،في المرحلة الأخيرة التي تسبق مرحلة التطبيـــق: حصلت على دورات فيما يسمى "بالمرأة المتعولمـــة " الموضـــة،

استخدام التكنولوجيا، الثقافة الجنسية، مخاطبة الآخـــر، لغـــة السمسرة على كل شيء وفي كل شيء".

* * *

وضـــع يـــده فـــوق جـــرس البـــاب، تعالـــت دقاتـــه المستفزة،اضطررت لارتداء جلبابي الأسود، فتحت الباب رأيته بجسده العملاق الذي يغطيه لفافة من الخيش المشبع بطبقـــات من القذارة تشبه شعر رأسه "الأكرت "الذي يزحف فيه القمل بوقاحة؛ عندئذ قارنت بينه وبين الدكتور باهي ذلك الكائن الذي استغل كل ما يحيط به من أشخاص ، أماكن ، فـــرص ، ومع ذلك لم يحظ أبدا بالحرية التي حظي بها رشوان عندما خلع ذلك القناع الذي يسمى بسلطة العقل واشترى حب الـــداعرة عائشة في مقابل الجرن والقصر المهجور، "هل كانت عائـــشة تستحق كل هذا؟ هل فاز رشوان على الدكتور باهي الـــذي ادّعى امتلاك الحرية؟ "

"نديرة عند الضريح "

لم يتجه كعادته إلى المطبخ حيث تضع نـــديرة لـــه كـــل أصناف الطعام الموجودة، فيلتهمها كالوحش،عندئذ تتحـــداني نديرة وترد له عقله المختبئ أسفل قذاراته وجنونه ،عندما تسأله عن عائشة وعلاقته بأبيه، يبدأ في الحكي كأكبر فيلسوف "لمـــا

سمعان الحوشي هزم أبويا في الجرن صقفت، وقولـت بـأعلى صوتي وقع فرعون الخمستاشر سنه تأبيده ،لأنه كان فتوة حي السقارى لمدة خمستاشر سنه ،حبسني، وفضل يضرب فيا لمـدة شهر لحد ما جلدي أمرى،وفي مره جات الضربه على محاشمي، طلّعت روحي، شديت العصايه منه ،ونزلت فوق ضهره، ناس قالوا إنه مات، وناس قالوا إنه عجز، وبعد كده مات ؛ دخلوني مستشفى المجانين، لما كلت أيد العسكري اللي قاللي: يا تـور، كت باكل الرمل، والظلط من الجوع، ولما عرضت عليا فهيمه إني أتجوزها، وتخرجني من المستشفى، وافقت، وقلت زى بعضه لإني عارف فهيمه، زي أبويا اللي استولى على الحي والجـرن بحجة الحماية ،هي عايزة تستولي عليهم بحجة شبابها اللي دفنت منه ست شهور في خدمة الـسقاري عـايزة تمـن الـست شهوراللي اترحمت فيهم من تعذيب خالها ليها اللـي طبقتـه بالظبط على شعبان اليتيم،سبتها ترفع قضية واتـنين، كنـت ناوي أديها كل حاجة،علشان المـصاريف اللـي صـرفتها، واشتري حريتي بكل اللي عندي، بس لما شوفت عيشه، عرفت أني لسه أنسان مش حيوان، زي ماكان أبويا بيسوقني بالعصايه الملفوفه بالحديد والقصدير، وفهيمة اللي كـات بتعـاملني زي الحمار المحمل دهب وهو مش عارف،حتى كلثوم كات شيفاني تور،أحبّل مية بقرة في يوم واحد، إلا عيشة هي الوحيده اللـي

عاملتني كبني آدم،عشت معاها كل مراحل عمـــري، كانـــت بتسحمني بأيديها زي أمي، وتسمع أوجاعي زي ميري مدرسة الفرنساوي اللي استخسرها فيّ أبويا ،و حسستني برجولتي زي ما يكون أنا الراجل الوحيد اللي في العالم، وكل الرجالة اللـــي حواليها جريد مسوس زي سقف عشة الخمس نخلات ؛ مـــش مهم طمعها في الجرن والبيت، ده تمن قليـــل بالنـــسبة لكـــل الأحاسيس اللي لسه بحسها لحد دلوقتي، وأنا عايش مع عضمها اللي في الضريح، عشان كده اتنازلت لها بكل رضا عن كـــل حاجة،حتى عقلي"

فجأة يتوقف عن الكلام، ويضع ماتبقى مـــن الطعـــام في رغيفين، ويهرول إلى الضريح ،كأنـــه علـــى موعـــد معهـــا ويرددأغنيته الوحيدة :

عيشه يا عيشه	يا أم الحزام اللاوي
عيشه من ضيقها	طق العسل من ريقها
يسلمك يا عشيقها	بيضا والخد مساوي

تلتف حوله الأطفال الذين يجلسون في حلقة الشيخ عطيـــة لتحفيظ القرآن الكريم، يرددون خلفـــه الأغنيـــة في صـــخب وتصفيق، فيلعنهم الشيخ عطية، ويلعن رشوان وعائشة رغم أن مفتاح صندوق النذور لايفارق صدريته، وفي نهاية اليوم يبدأ في

إحصاء النذور، وقد يُقبّل الضريح إذا كان المبلغ يستحق ، بينما ينشغل رشوان بجمع القمامة من البهو الخارجي للجامع الـــذي يطل على حجرة الضريح، ثم يسوي الرمال، يروي أحـــواض الزهر التي تزين مدخل حجرة الضريح، ثم يـــدخل الحجـــرة، ينفض الأتربة من فوق السجاد الأرضي، ومن فوق الـــسقف، والقطيفة من فوق الحوائط، ثم يشعل الشموع، ويمرمغ وجهـــه في الحرير الذي يكسو الضريح، ثم يدور حوله حتى يسقط من شدة التعب، فيأتيه عجورة صباحا ،حاملا: جلبابـــا نظيفـــا، سندوتشات، كوب الشاي، يدخل في مـــصارعة معـــه حـــتى يستحم،ويرتدي الجلباب،ثم يطعمه كطفل، يخرج مـــن عنـــده لاعنا نفسه لوعاد،لكنه ظل مواظباً على زيارته منذ عودته مـــن الغربة.

* * *

"ماندمتش على موت كلثوم، (وأنا فى الغربه) ،وهي عميا، وعاله على شعبان؛ قبل ما اسافر، بعت الأوضه لرجب،وأنـــا عارف إنه هايطردها،وشعبان أكتر واحد كرهته هـــو اللـــي سكنها معاه ،أنا عارف إن معاها اللي يكفيها طول عمرهـــا ، شعبان مش هايقبلها كده لله، أتجوزت عيـــشة اللـــي رفعـــت رجب، وبيها هأبقى أغنى منه، واشيل راسي قدام شعبان ، بس

اللي ماعرفتوش، إنها أتجوزتني لإني صاحبه وبفكّرها بيــه،أنــا عارف مصايبها مع رجب،بس ماقدرتش أعيش معاها، وانــا عارف أنها بتحب شعبان، فهربت من عش العنكبــوت اللـــي جوايا، وقلت مش هارجع هنا تاني بسببك ،وسببها وســببه، اتنين رجعوني إنتَ ،كان لازم أكرهك حتى لو كنــت أبويــا بحق، وحقيقي؛ ده ســبب كـــافي عــشان أكرهــك طــول عمري،واسيبك لحد ماتتعفن، وفي تاني يوم ألقـــاني شـــايلك الجلابية المكوية، والسندوتشات، وبراد الشاي المليـــان، وأروح نفس المشوار اللي بيكرّهني في الدنيا كلها، مكتوب عليا أزور ضريحك ياعيشه غصب عني !، وأنا راجع من آخر زيارة ، بعد موت عيشة بسنتين، قابلت الدكتور باهي بيعاين المكان على الطبيعه، كان عارف كل حاجه تقول، نايم، وراقــد معانـــا!، استغربت، لما عرفني، وكان عارف كل حاجــه عــني، لحــد ماقولت أن أمي كلثوم سمعتها بقت عالمية، لكن لما شــوفتها في أول اجتماع،عرفت الحقيقة ، صحيح شكلها زي أمها بالظبط، بس فيه فرق كبير بينهم، قلت له أنا عايز أهاجر، أنا في دماغي اختراعات كتيرة، ضحك وقاللي:" أنت حرفي،عندك موهبـــة، لكن عبقريتك تتوحش في التقليد، لكن ذلك لا يؤهلك لكونك

مخترعا ،فالمخترعون إلهة الأرض، وأنت لاتــصلح لمثــل هــذا الدور، سأمولك كي تفتح شركة مقاولات ملحق لها بمكتــب استشاري هندسي، يعمل به عــشرات المهندســين، لتنفيــذ مشروعات كبرى في مقابــل ١٠٪ مــن الأربــاح"، كنــت هارفض، ١٠٪ حاجة ملهاش طلب.

" ستصبح منافساً قوياً لشعبان، وربما تحقــق حلمــك في الانتقام منه و.."

وافقت بسرعة ،شعبان مايملكش غير مكتب مقاولات على قده،وعدّته ماتكعبش خمسين متر،بس يملك أغلى حلم، نفسي أحققه"

* * *

سئمت من برامج القراءة التي لم اكتشف لها أيــة فائــدة، اتصفح الكتاب في سرعة ، أسجل تعليقا عن آخــر صــفحة أتوقف عندها، اقرأ الهامش ،يراقب انفعالاتي، طريقــة تنــاولي للكتاب، أو التنحي عنه،ينهال عليّ بالأسئلة، ما الفكرة الــتي أعجبتني؟ما الفكرة التي أحب أن أضيفها ؟ ثم أقوم بتــسجيل تعليقاتي ،كل ذلك يتم في رتابة ونظام ،ومراقبة، وهذا أسوأ ما في الموضوع ؛فأنا لم أكره شيء في حياتي أكثر من كرهي لكل مايطلق عليه نظام، مراقبة ،عادات ،فجأة شــعرت بافتقــادي

لحسام، فقد تغيب عن الكلية منذ شهر، معي عنوانه، ورقـــم تليفون السنترال الذي يجاوره ؛ومع ذلك لم أفكر في الاتصال به

" يمكن لأي طفل أن يناديني، كلنا هناك نعرف بعضنا حتى الحيوانات ".

لماذا لم أفكر في زيارته ؟ أو حتى الاتصال به أو حتى أسطر له بعض الكلمات ؟استغربت من خجلي، ضحكت، قهقهـــت بأعلى صوتي ،التفت إليّ كل المدرج بما فيهم الدكتور بـــاهي الذي توقف عن الكلام في غيظ ، ثم أرعدني بنظرة اتهـــام ،لا أدري لماذا فقدت شهية الاستماع إليه؟ ربما لأنني آراه يوميا في اجتماعات النادي في جلساتنا الخاصة، أو ربما لأنني اســـتمع للمحاضرة للمرة الثالثة :منه ،من الأســـطوانة، والثالثـــة الآن، غمغمت ببعض كلمـــات الاعتـــذار؛ لأول مـــرة أتمعـــن في كلماته،كنت أعتبرها قبل ذلك من المسلمات، أما الآن فقـــد رأيتني أمام شريط كاسيت يعرض أفكارا متناقضة، مـــشوهة، استأذنت وسط شهقات المدرج كله، بدأت أسير في الطرقات التي تتخلل حدائق الجامعـــة، انطبعـــت في قلـــبي ابتـــسامته، استرجعتها مراراً في عقلي، اتلعثم من لذة مذاقها، تحادثت مع نفسي "نعم معكِ حق "عليه ابتسامة تساوي كنـــوز الـــدنيا ،

أرجو ألا يفقدها "لكنني تراهنت معها أنه سـيفقدها بفعـل الزمن، إنه الوحيد الذي لم أفكر في اللعب معه لعبة الغواية، لم أفكر في لمس يده، لم أقل له كلمة حب واحدة رغم إحساسي الحقيقي به، فإن كلماته كانت تبذر بداخلي شـجرة حيـاء روحانية تلك الشجرة الـتي ظننـت أنها ماتـت في أرض شذوذي،هو الوحيد الذي استمتع معه بلغة الرفض .

"أنا أتحداك بل توجد منطقة وسطى بين السالب والموجـب ،تسمى منطقة الاتزان، لو أحضرت قضيبين من المغنـاطيس: أحدهما سالب، والأخر موجب ،؛وضعت بينهما برادة الحديد على بعد متساو، لن تنجذب ،وتسمى عندئذ نقطة الاتـزان، وأعتقد أنها مجال علاقتي بك ،يبدو أنها ستظل للأبد، بينما لـو زحزحتها باتجاه القطب السالب ستنجذب إليـه، والعكـس صحيح ، وهذا حالي في كل علاقاتي بالآخرين".

قلبت بصري بين مجموع الفتيات الـلاتي يجلـسن أسـفل الشجر البيضاوي،فجأة توقف بصري بطريقة لاإراديـة فـوق فتاته السمراء التي تجلس بين فتاتين منتقبتين، استغربت التحول المفاجيء من ميكروجيب إلى النقاب خلال شهر واحد ؛ربمـا لأنه شهر رمضان !،اتفقن على موقف واحد مني، وهو حالـة

القرف التي ملأت وجوههن، تجاهلتها ،اقتربت منهن، دفـــسن
وجوههن في كتبهن ،ترددت أمام وجهها المنقبض "فين حسام؟
"استنهضت زميلتيها، شذرتني بنظرة اشمئزاز،وقالت :إنه يتطهر.

"كل اللي أعرفهم قالولي:إن سمعان الحوشي مـــش أبويـــا، لقيني وهو داير في الخرابه، بيلم شُخاخ الناس من جنب الحيط، ماكنش فيه حمامات،ولامجاري ولا حاجات من دي ،كانـــت الناس بيشخوا في أكياس وبالليل يرموها في أي خرابـــة ،ولمـــا تنشف يجمعها في أشوله، ويبيعها للفلاحين عشان يسبخوا بيها الأرض، وفي الليل كان يسرق محصولهم، ويخبي الحـــشيش في فرج الحماره، وعمره مادخل عركه، واتغلب فيها، وفي ليلـــة، جمع شوية نسوان، وأطفال من الشوارع، وحمّلنا على عربيـــه كارو، لحد ما وصلنا ع الفجر في جرن أرضه نصها مية معفنه، جففنا الأرض، وبنينا العشش، ربطنا حبل الغسيل في جـــذوع النخل اللي مالي المكان، وكانوا بيسموه جرذم النخل، وقعدت الستات العجايز قدام العشش،تدق الوشم، وتقـــرأ الكـــف، وتضرب الودع ،وباقي النسوان يفتلـــوا الحبـــال، ويطـــرزوا الإيشاربات، وتدور البنات الحلوة ع البيوت؛ عشان تبيعهـــا، وتدعي في نفس الوقت الرجاله إلى عشة الخمس نخلات اللـــي كات بتديرها مراتي من الليلة الأولى،وأنا درت بقفص الفـــراخ

في الإسواق لحد ما انكسر ضهري ،أصل ماكنش ليّا في العراك، وقدرت اشترى عربيه كارو ،وبعد كده هربت ع اليمن لمـــا قتلتها، أما بقية الرجاله فقعدوا، يستنوا فتوة حي السقاري اللي حاكمهم من خمستاشر سنة بالعـــصاية الـــسحرية الملفوفـــه بالقصدير والنحاس، وجه الفتوّه ورجّالته ،ودخل مع سمعان في عركه مش ها شوف زيها طول حياتي، واتكسرت العـــصايه وحبس نفسه في البيت، وعرفنا إن ابنه المجنون كسرله سلـــسلة ضهره وعجزه، ومات في نفس الشهر، وابنه دخل مستـــشفى المجنانين، وبكده أحتلينا الجرن للأبد، ولما اتحدانا أخو فهيمـــة بطل الأثقال، اتراهن معاه سمعان ، قبل مايـــدخل في معركـــة حقيقية، وطلب منه يترل خمس عربيات كارو محمله بمية شوال من الدقيق، كل شوال فيه مية كيلو، وفعلا نزلهم، (كان شاب ولاكل الشباب) ،وعزمه سمعان على شفشق مليان زبده مولعة، شربه،، مرة واحده بصينا، لقيناه سقط من طوله، فهيمة قالت بعد كده إن كبده انفجر ، كنت مبسوط لما خدني سمعـــان في حضنه، وقاللي "إنت ابني اللي ماخلفتوش، أنا أخترتك من بين مية راس عشان دماغك"

١٠

اضطررتُ أن أخرج من حجرتي التي اتخذتها مقبرة لجسدي العاري، وأنا في طريقي إلى الجامع، تذكرت شعبان الذي قام ببنائه لمدة تسعة أشهر، وارتفع بالمئذنة خمسة وسبعين مترا بقبو الطوب الأحمر بدون خراسانة، كان يجتمع أهل حي السقاري حوله كل يوم؛ كأنهم يشاهدون مباراة ،أو يجلسون في قهـــوة الحوش وكل ما يوشوش قالب، ويضعه، يصفقون ، وصـــدقوا الحكايات التي قيلت عليه ،إنه تعلّم فن البناء مـــن روح البنّـــاء الذي بنى هرم سقاره عندما هرب من فهيمة ، وغـــاب لمـــدة أربعين يوم،ثم وجدوه نائما في إحدى المقابر،عنـــدما دخلـــتُ الجامع، تصلبت عيني فوق المئذنة، وفهمت لماذا كانوا يطلقون عليه شيخ البنائين؟ وتأملت السلم الحلزوني، والصندوق المربع، وقلت" لورأيت الجامع قبل ذلك لاقترحت على الدكتور باهي أن يضمه لمائدة العباقرة"، كرهت كل ذلك البذخ الذي ظهـــر منذ بداية السور المرتفع المزدان بالعرائس الـــتي صـــنعت مـــن الجرانيت، والأعمدة الرخامية،طرق الإســـفلت الـــتي تتخلـــل حدائق الصبار، أحواض الأزهار، البهو الـــداخلي الـــضخم،

السجاجيد ،الحرير ،التحف وألخ.. كل ذلك لايقارن بما رأيته داخل حجرة الضريح، وسألت نفسي" لماذا لم يتقاض شعبان أجرا لمدة تسعة أشهر اثناء بناءه لهذا الجامع؟ وكأنه يدفع ضريبة للسماء، وكل الحرفيين حذوا حذوه ،وما فائدة جامع بكل هذه الرفاهية في حي يقع تحت خط الفقر؟"إنني الآن مقتنعة بضرورة هدم الحي كله.

"إنت عايزه تستشيخي، ويتبني لك ضريح زي عيشة "

لفت نديرة طرحتها حول راسها التي تمطر سيولا من الشعر الأسود المفضض ببعض الشعيرات البيضاء فوق جبهتها العريضة "الجامع ده بنيته مع أبوكي ،كنت باشيل الميه على دماغي، وكنت ببص على أبوكي ،وكأنه مش زينا ، لما رفضت أتجوزه، وقلت لأبويا أنه ما بيعرفش يلبس، في الحقيقة كنت خايفه أعاشره"

* * *

اقتحمت فهيمه قهوة الصنايعية "قهوة رجب " كان يجتمع فيها يوميا الصنايعية من كل حدب، وصوب ويمثلون كل أنواع الحرف، انحنتْ فوق يد الحاج قمر "مقاول الأنفار" كي يقبل شعبان .

"أنا مش قد مصاريف المدارس،خد شعبان معاك، ولو حتى يشتغل فواعلي، يطلع طوب، ورمل"

تحت إلحاح كل الموجودين، وخصوصا عندما تناولت يده عنوة كي تقبلها؛وافق رغم علمه بلسان شعبان السليط، بل بيده عندما عيّره بزواج أمه من المأذون الذي طلقها من أبيه، وهو على فراش المرض (كما روت له فهيمة)، ضربه شعبان بقالب الطوب، شج رأس الحاج قمر الذي لعنه، ولعن فهيمة واليوم الذي رآه فيه، رجع شعبان إلى المترل، انتهز وجود فهيمة في الغيط ، وأخرج عباءة الشيخ عطية الحريرية، وربطها من أكمامها،وملأها بكل ماهو ثمين من عقد ذهبي لفهيمة، وقلة مكسورة؛ تدخر فيها بعض النقود، وآواني نحاسية ،وباجور الجاز الذي كان مغرما به، ويشاركه سهر لياليه، وشاهد صامت على تعذيب فهيمه له، باع كل الأشياء لسمعان الحوشي عدا الباجور طبعا، وهرب، بعد أربعين يوما رآه الشيخ عطية نائما في إحدى المقابر، أقنعه بضرورة العودة،لم يكن في حاجة للاقتناع؛فحياة التشرد هي التي أقنعته،ولكنه ذهب لسمعان كي يأخذ منه الباجور، و باقي مدخراته (ثمن الآواني النحاسية)؛ لكن سمعان أوشى به لفهيمة،

كانت لديها قوة ثور ،شدته من قدميه، بدأت تجرجره من عشش الحوشي مرارا بالكوبري، بالكنيسة، المقابر، مقدمة الحارة حتى منزلها في نهاية الحارة؛انسلخت فروة رأسه، تلطخ وجهه وجلبابه بالدماء، لم تفلح معها ضرباته الطفولية، تحولت إلى جروح، فتقيحت إلى دمامل، طمست رأسه "

"كانت وظيفتي وأنا بنت أحول الميه فوق راسي ؛عشان يبنوه، ولما اتبنى، فضلت أحول الميه عشان يتوضوا حتى لما أتجوزت، صممت ماقطعش العادة، ورحت آملا من المشروع الجديد اللي ورا عشش الحوش وتوهت هناك"

تصلبت نديرة عندما رأتها تضع جلبابها الممزق في سروالها دون مبالاه بعري نصفها السفلي حتى صدرها تمسك الملعقة، تحكها بقطعة من الطوب الأحمر، تشطفها، ثم تغسلها بالصابون، ثم تعيد شطفها مرة أخرى، بريقها ينعكس في عينيها من شدة النظافة، تشمها، تقبض أنفها، فتلقيها في الوحل مرة ثانية وثالثة؛ رفعت نديرة صوتها "دي ريحة الوحل المعطن تحت الحنفية "ضحكت فهيمة، وقالت:"شوفي انا هامشي مع النسوان، وإنت خليكي متسمرة قدامها لحد ما الليل يليل، وتوهي في عشش الغجر "

غاصت نديرة في ساقيها العاريتين الطـــويلتين المـــستورتين بكتل اللحم الرائب، وقامتها الفارعة المزدانة بطبقات شـــعرها الأشقر الذي يغطي جبهتها الهلالية،وعنـــدما تتأمـــل عينيهـــا الزرقاوين كأنك تتنقل بين طبقات سماوية رائقـــة، صـــدمتها ضحكتها الفاجرة التي لاتتناسب مع جمالها الرومانسي البريء، انتبهت نديرة، التفتت لم تجد فهيمة، وبقية النـــسوان، ملـــت مشهد غسل الملعقة الذي تكرر للمرة العاشرة،حملت البـــستلة فوق رأسها، ثم غرست خطواتها في الظلام بحثا عن منزل فهيمة التي سكنته منذ أسبوع، وهو عمر زواجها من شعبان ،تاهـــت في عشش الغجر ، لعنت العادات التي تحكم على البنت بمجرد أن تحيض ؛تلزم منزلها لا تغادره إلا بالزواج "مـــش لوكنـــت بأطلع وأدخل كنت عرفت المكان بدل ماأغرق في شبر ميه، ده نفس الحي اللي أتولدت فيه، أمال هأعمل إيه لو رحت مكان غريب،الموقف ده علّمني ، لازم أعتمد على نفـــسي واشـــتري حاجاتي ،وأقضي محتجاتي بنفسي ،مش هاقعد تحت رحمة حـــد ولو كان شعبان ،وفجأة تجمدت في مكانها ،عنـــدما وقعـــت عيناها على منظر رحب عاريا ،حاولت أن تتقهقر للخلـــف، تعثرت ،سقطت البستلة ،تشبثت بها كأنها طوق نجاة، هجـــم عليها، شدها من ضفيرتها، وفجأة انكمش في مكانه.

"بصيت لقيتها قدامي، ماسكة المعلقة ،ووراها شبح عملاق ماسك عصاية، ضحكت ليّا زي ماتكون تعرفني، وحسست على شعري الطويل ،ورفعتني بأيديها اللي متغرقة صابون من ع الأرض ،والراجل العملاق اللي وراها ملا البستلة تاني وشالها ومشي ورانا يحرصنا ،عرفت بعد كده إن اسمه رشوان وفضلت حامله جميلهم على راسي،و لما وصلنا ،لقيت شعبان بيتخانق مع دبان وشه ، رفع البستلة،ورماها في وسط الحارةوقاللي،وهو بيبرقلي بعنيه الخضرا:"من بكره، نأجر سقا"ضحكت عيشة،ضحكتها المعروفة (زي ما تكون جنيّة البحر)، وغمزتني في كتفي،رديت عليه لأول مرة ،لأني قررت أنفذ اللي ناويت عليه"لأ ،ده بيغسل أيده في الميه، وساعتها صممت أدخل الميه، وقابلت عضو مجلس الشعب ،ودخلتها للحي كله ومع كده فهيمة كانت بتقفل المحبس بالمفتاح في يوم الغسيل ، ولما طلعوا جتة عيشة من تحت الضريح الفاضي اللي اتسمى على اسمها، مارضيتش أروح مع النسوان، أتفرج عليها،"

انهمرت التبرعات من حي السقاري، وامتدت إلى المحافظات الأخرى "الله اكبر!.

دي جتة عيشة الحوشية اللي اختفت من سبع سنين،طريه زي ما يكون ادفنت من ساعة "

انتشرت الشائعات، كثـرت الحكايـات عـن مكـارم، ومعجزات الشيخة عائشة.

"كات مجوزه من تحت الأرض، بتاخد منهم فلوس ،وتديها لأبوها لحد ما خلته سيد البلد "

"الرجالة المربوطة كات بتروح لها؛ علشان تفك العمل "

اشتهر الضريح، أصبح له رواده من جميع أنحاء البلاد، معظم التبرعات ابتلعها الضريح الذي تم طلاؤه بمياه الذهب، والفضة، بطنت أخشابه الأبنوسية بالحرير الأخضر، زخرفت حوائطـه بآيات قرآنية ،وبطنت بالقطيفة، طعّم سقفه بالرخـام، وازدان بالنجف الكريستالي الذي يضئ بكل ألوان الطيـف ممتزجـة، ابتلعت أرضيته طبقات السجاد العجمي، ألسنة الباخور الفاخرة تعم أرجاء الحجرة بل تتنافس مع قوارير العطـر المـستوردة، وضع صندوقين من الخشب الأبنوسي على جانبي الضريح كلا الصندوقين به فتحة صغيرة تمتص النذور، أما مفتاح الصندوقين في صدرية الشيخ عطية.

اشتعلت غضبا، اقتحمت حجرة الـضريح، غـصت في السجاد، اغتسلت بالعطور الممتزجة بالأبخرة الهندية "تحبي أدور حوالين ضريحها تلات مرات، وأمـسح وشـي في حريرهـا، وأطلب منها الهداية ".

أحكمت نديرة الطرحة حول رأسها "أنا مش عايزاكي تكوني زيها، تتباعي هنا بالجنيه، وهناك بالدولار،أنا غلطت لما ما قولتش لأبوكي عن اللي عمله رجب معايا زمان،يمكن كان حماكي منه"

- بس إنت خفت عليه ،أحسن يقتله ويروح في حديد،حبك له كان أكبر من حبك ليا وهو كمان..

* * *

"لما طردتني عيشة من عشتها ،وبصت لي بصه مش هيه،صممت انتقم منها وخططت ،أشغلها لحسابي وأجلت سفري مع شعبان وقولت هأفضل لاذق لها لها لحد ما ميّل دمغها ،ورحت للشيخ عطية علشان أقنعه أنه يعمل معاها زي ماعمل ثوبان مع رابعة ويروح لعيشة يقنعها أنها تتوب ،قابلت نديرة،نسيت ساعتها عيشة واللي خلفوها ، كت باحب اتكلم معها ، وحبيت في اليوم ده، اثبت لها إن ابن الداية أذكى من شعبان اللي فضلته ع الكل "

نزل عجوره من فوق الكنبة، كأنه صخرة ،أمسك بصفيحة صدئة تستخدمها نديرة في تجميع القمامة، ثم أخرج منشارا من حقيبته التي يحملها معه في كل مكان: الشغل، أي بيت يزوره حتى عندما ينام يضعها أسفل السرير، فيها كل الأجهزة من

أدوات، ومعدات يستخدمها في الفك، و التركيب تلك الأشياء الدقيقة التي تشبع لديه الإحساس بأنه الأفضل"

"فضلت أراقبها من بعيد لبعيد، وصـــممت إني مابقـــاش ملطشه لأمي اللي بتناديني يا بن الحرام، وشعبان اللي بيناديني يا ابن الدايه، ولطشت في الآخر ،لما ضحكت الحوشيه، وقالت لي بنص لسان ":مابقاش الا أنت يا أبو ظرطه !"

نشر الصفيحة بالمنشار إلى أربع أضـــلاع، ثبـــت تلـــك الأضلاع بالقصدير الذي آساله فوق الباجور الـــذي تـــشعله نديرة (كي يذكرها بشعبان الذي كان يضعه بين فخذيه ،كأنه طفله المدلل)، فأصبحوا على هيئة صليب.

"نجح الشيخ عطية معاها وعرفت إنها هربت من رجـــب، واستنجدت بيه ، شغّلها فملجأ العذراء اللي بتـــديره بطـــه ، فحب رجب يضرب عصفورين بحجر عمل فتنه في الحي كله، سلط الناس تخرب الملجأ،وقال" إن بطة بتجمع العيـــال مـــن الشوارع عشان تنصرهم ،وتسفرهم للخارج، والشيخ عطيـــة بياخد عمولة على كده،وراح لفهيمة قاللها :"جـــوزك خـــد عيشة لمزاجه "،فطردته فهيمة من البيت ومن يومها اعتكف في الجامع".

طلب عجورة من نديرة أن يأخذ ماتور ماكينـــة الحياكـــة المستهلكة، ثم وضعه في الجاز، وفي الوقت نفسه أمسك بكوب

من البلاستيك ثبته على هيئة عنق يلتحم فيه الريش الصفيحية، وضع بداخله الماتور الذي أزال صدأه ثم أوصله بمجموعة من الأسلاك

"مالقيتش قدامها غيري ،عاشت معايا في الأوضة ،غصب عن عين كلثوم اللي كات بتهددني برجب ،علشان كده قبل ما أسافر، بعت الأوضة ليه ،أنا متأكد أنه كان عارف إنها عندي، إيه اللي غير موقفه ؟،يمكن فعلا .. مش معقول ،دي بنته !"

نفضه التيار أكثر من مرة خلف الباب، فقد الوعي ،انتبه بسرعة على صرخات نديرة ،ولكنه أصر على الاستمرار، وأعاد التوصيلات سبع مرات، وفي كل مرة يتعرض لصدمة كهربية ، وآخيرا نجح في التجريب، أوصل السلكين في البريزة الكهربية ، فدارت الريش بسرعة مثل الصاروخ، فانطلقت أمواج هوائية تداعب عباءة نديرة، قبضت نديرة على أطرافها،انطفأت شعلة الباجور، زغردت نديرة، وقالت في سعادة "ابن المرا ما يغلبهوش إلا الموت"

" اتجوزتها،وسافرت ،انتقمت منها "شوفي اللي كتي بتعمليه في عشة الخمس نخلات، ها تعمليه هنا بس لحسابي ".

١١

في الزيارات المتتالية لم يتجمـد جسدي مـن الـبرودة الشديدة، دخلت مباشرة إلى ركنه الخاص، أضأت اللمبة بعـد تنظيف زجاجتها، وتزويدها بالجـاز ،أشـعلت الحطـب في الكانون، ووضعت فوقه براد الشاي، جهزت الكوب ووضعت به ثلاث ملاعق من الملح، بدأت أرتشفه باستمتاع، لم يجـذبني منظر الكتب ،استرجعت مشهد الدكتور باهي في آخر مـرة زرته فيها، وهو خارج من حجرته الداخلية، عنـدما رأيتـه، ذهلت ،انكمشت في مكاني ،اقترب مني، زحفت بظهري بعيدا عنه، حتى اصطدمت بجدار المصطبة ، لم استطع الصعود فوقها، فحركت مقعدتي نحو الجدار الذي غـسّلني بـالتراب المطعـم بالسوس الذي ينخر في السقف، حملقتُ في جلبابـه الأسـود الممزق من فوق الكتفين، ومن اسفل الخصر حـتى أطرافـه، المزدان بالدانتل ،اعتصب رأسه بإيـشارب صـوفي ذي ورود صفراء، تغطيه طرحة سوداء كالحة اللون، متآكلة يصل طرفاها حتى قدميه "ما تخافيش دي ملابس أمي "

بدأ يصف لي خامة الجلباب، طريقة لف الطرحة، ثم يغـني المواويل الصعيدية الحزينة ،انقبض قلبي من صـوته الأنثـوي،

وطريقة مشيته الأنثوية مئة في المئة،لدرجة أنني تصورته أنثى جائعة لماء ذكري .

"إنت لسه معجزاك عقدة الذنب،،آمال لو عملتي زي ما عملت في ابويا؟، كنتي هاتنتحري! "

بكيت بأقصى قوتي الانفعالية،هزني النشيج "مارحتش زورته في المستشفى، إلا لما عرفت إنه بيموت ،كنت باشوفها بتتنقل بيه من دكتور للتاني، ومن بلد لتاني بلد، زي ناعسة ،هوكمان فضل ينادي عليها لحد ما مات التمرجيه قالت" إن اسمها هواللي كان بيعرفنا إنه لسه عايش "مسحت بقايا دموعي "صمم لآخر لحظة من حياته إنه يكون جوزها بس ،عمري ما حسيت إنه أبويا"

اشتعلتُ نشاطا، غسلتُ ملابس شعبان، طبخت، وضعت صينية الطعام إلى جواره فوق السرير، بدأت، أطعمه بيدي، أزاح يدي، أخرج علبة السجائر مع المحفظة، أشعل سيجارة

"أنا باطبخ أحسن منها "فرّغ في يدي كل الفلوس التي في جيبه، طلب مني أن أعطيها لنديرة،أن أتعرّف كل أخبارها بأدق التفاصيل "كلت إيه؟، وشربت ايه؟، خرجت ولا لأ؟".

رددت عليه في عدائية"سيبها عند جدي لحد ما تتأدب "قبل أن أكمل كلامي، ألقى بالصنية في وجهي، ثم لطمني بأقصى قوته "أمك عمرها ما طلعت زعلانه، عمرها ما باتت بعيدة عني والمره دي إنت السبب "

فجأة رأيته قفز أمامي فوق البنش، أحاطني بساقيه الطويلتين اللتين تسمرتا فوق المقعد ، ثم أخذ القلم من يدي، ورفع وجهي بكفة يده السمراء، ثم قال بقدسية

"أريدك أما لمسيح آخر أريدك أن تشاركيني سجادة الصلاة"

تذكرت عندئذ مقولة قرينته السمراء "إنه يتطهر " ضحكت من مظهره بطريقة عفوية ،رأسه الحليق تماما بالموسى، وجهه الذي ازداد نحافة مما أدى إلى شدة سمرته ، تأملت عينيه العسليتين الصافيتين كأنهما طبقتان من العسل الأبيض "أنت كنت في الجحيم!"

قلتها بتبجح، صمت ،ثم شرد بعيداً، عاد إليّ صوته ضعيفا منهوكا "نعم، لما اكتشفتها، صممت ألا أزورها بعد موتي "

"نديرة دائما كانت تردد المثل الذي يقول" النار تخلف رماد "كنت أكره هذا المثل (ربما لأنه ينطبق عليّ وأنا برهان على صحته)، رأيتها متعلقة فوق أحد الأسقف التي صبها شعبان

حيث اشتد عليه المرض، فلم يستطع مباشرته،رفض النجـــارون العمل تحت قيادة نديرة قالوا "ما بنشتغلش تحت أيد ستات "، تآكل الخشب من الشمس، صعدت فوق الـــسقف، عقـــدت ضفيرتيها حول الايشارب، ثم لفتهما ثلاث لفات، وأحكمت فوقهما الطرحة، أمسكت بالعتلة، وانحنت، تفك الخـــشب في وسط دهشة ،وغيرة النسوة ،هرول الرجال والأطفـــال كـــي يحملوا معها الخشب، ويهبطوا به إلى أسفل السقف ، تمزقـــت طرحتها ،ودخل أكثر من مسمار في يدها، وفي قدمها، والعرق الغزير المحمل بالتراب، التصق بجبهتها، فدهنها بطبقة ســوداء، ولكنها صممت أن تنظف الخشب مـــن المـــسامير، وبالفعـــل عملت بنكا (يشبه الترابيذة) ،وضعت فوقه ألـــواح الخـــشب، تمسك بالقدوم، وبدأت في خلع المسامير، ورصت الخشب كل ذلك، وهي تتجاهل نظرات الاستغراب من الناس الذين تناولوا تاريخ حياتها بطريقة حاقدة، وعندما صممت على تحميل عربة الخشب، ابتلعوا أحقادهم، وقالوا بصوت مسموع "إنت إيه ما بتغدليش؟ ده شغل رجاله!"وسألت نفسي، وأنا أمثـــل أحـــد المتفرجين،كيف أعيش مع امرأة مثلها؟ تلك المرأة التي دفعـــت بسكرتيرالمحافظ عندما منعها من الدخول،ودخلت عنوة بنصف

جسمها، استغرب المحافظ ،إنها نفس المرأة التي جــاءت منــذ خمس سنوات في صحبة أحد أعضاء مجلس الشعب لكي تحصل على تأشيرة الموافقة بدخول المياه لنفس الحي ، كل هذه الثورة تنبع من امرأة ضئيلة الحجم، قصيرة القامة !"، غضب بــشدة عندما علم أن ثورتها من أجل إنارة حجرة في مــترل، داخــل حارة مغلقة ، في منطقة خارج الخريطــة ،وعنــدما اجابتــه "الأوضة دي فيها كل دنيتي ،فيها كل الناس اللــي اتخلقــت علشانهم، فيها الراجل اللي اخترت اتحشر معاه يوم القيامة حتى لوكان هايدخل النار، بالتأكيد ربنا ها يصعب عليه أنه يفرقنا، وكمان بنتي ها تدخل المدرسة السنة الجاية، وهو نفسه تطلــع مهندسة، أرجوك يابيه، وافق،علشان تعــرف تــذاكر "أشــر بالموافقة على دخول الكهرباء إلى الحي كلــه ،تأمــل عينيهــا السوداوين الغامضتين اللتين تفيضان تحديا ممتزجا بحنان فطري، ضحك ،وقال لها "إنت،الواحد يخاف منك، ده إنــت ممكــن توصلي للرّيس"

هبط من فوق" البنش"، وجلس بجواري، وفجــأة ابتعــد مسافة نصف متر، حاول أن يكسر صمته أكثر من مرة، ولكن في كل مرة تتغلب عليه رزانته، فحصت التغييرات التي طــرأت

عليه، لكنني لم اكتشف سوى تغييرات ضئيلة مثل نحافته ، شدة سمرته ،ارتعاشة نبرة صوته ، رزانته السميكة، ضياع ابتسامته وسط شروده، لكنني أشعر الآن برشاقة روحه لدرجة انني خفضت وجههي خجلا، خفت أن يقرأ تاريخ علاقاتي الشاذة، نظرتُ إليها، رأيتها، ترقبني بعينيها الإبريتين، الحاقدتين، وقلت في نفسي "سترنجينه لامحالة!" سمعت صوته كأنه حفيف شجر ،عندئذ ايقنت ماهية التغيير الذي حدث له .

"لأول مرة أتآخى مع القرآن الكريم، لمدة شهر كامل (شهر رمضان)، وعقدت بيني وبينه معاهدة تلازم للأبد"

لم يكن لدي أي تعليق، حملقت في الرهبة التي بدأ يتلو بها الآية ٢٣في سورة الزمر

قال تعالى" اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) "

"صدق الله العظيم"

شعرت كأن روحه تطفو فوق وجهه ،تكاد ترفرف في المكان كله، وتأملت جسده الذي خلا من الشحوم، كأنه

سيطير هاربا من كل بهجة دنيوية ، نظرت إليها مرة أخـــرى ، فهمت لماذا أكره تلك الفتاة التي ستهزمني، ثم استدرت إليـــه، أطلت النظر، كأنني أودعه لآخر مرة .

١٢

بمجرد دخول الدكتور باهي قاعة الاجتماعـــات، انـــتفض رجب الحوشي عن كرسيه ،وقف كالقط في مواجهته تنـــازل عن عقد مؤسسة اعلامية قد اشتراها عندما طرحتها الحكومـــة للبيع ، في مقابل ١٠% عمولة تضاف إلي حـــسابه في بنـــوك سوسيرا، هزه بكلتا يديه "في يوم من الأيام ،ها نشتري البلـــد كلها، و نحكمها بطريقتنا "

رفع كرسيه،وضعه بجواري همس إليّ "صحيح إنت ناويـــه تتحوزي عجوره؟"

زحزحت الكرسي، قلتها مفخمة بابتسامة تحدٍ "ممكـــن "ثم قفزت من جواره عندما رأيت عجورة قادما نحونـــا ،أمـــسك يدي، وانحنى فوق صدري، كأنه سيبتلعه، و قال"أنـــا كـــت أحسبك ها تتجوزي الدكتور ،ع العموم أحنا زي مـــا أحنـــا "تركته يهنئه بابتسامة ســـخرية، بادلـــه عجـــورة بابتـــسامته البلهاء،عندئذ تردد في ذهني مشهد وفاة شعبان، وهو مفتـــرش سرير المستشفى، يحملق في الوجوه المحيطة ،ثم يرخي أجفانـــه، ونديرة تجلس أسفل السرير، ترتكن على أحد جوانبه، تولول،

انطفئت عيناها من كثرة البكاء ، وأنا طبعا أقوم بدور المشاهد المتبلد في هذا الفيلم الدرامي في أشـــد مـــشاهده مأســـاوية، انتفضتُ على نداء شعبان "خلاص ياجيداء، ها ترتاحي مـــني "كان مصمما أن يحتفظ بكرهي له حتى النهاية ،كنـــت أتمـــنى لويطلب مني أن أقترب ويلمس تفاصيل وجهي بيديه المرتعشتين من سكرات الموت ،ويضمني بعنف ،كنت أريد أن أختبيء في حضنه ،أن أحتمي به من الأشباح التي سيطرت على حياتي ، وتدنت بها إلى الحضيض: أشباح الكره والغيرة والإحساس بأنني حجر عثرة ليس له فائدة سوى إيذاء الآخرين ،كنت أريـــد أن أناديه بأبي لآخر مرة، لكنني تسمرت في مكاني، حلت نـــديرة محلي ،جلست بجواره ، بدأت تدعو له ، زحف إليها بمقدمـــة صدره، فقطع آخر خيط يربطه بالحياة ،ســـقطت رأســـه في حجر نديرة، ثم أغمض عينيه للأبد.

* * *

صممت فهيمة على هزيمة الشيخوخة التي ســـرطنت كـــل خلايا شبابها، من جمال، وعزيمة، وخلخلت الفأس في يـــدها، ونظرت إلى شعبان الذي أخذته رضيعا من أمـــه منـــذ أحـــد عشرعاما، مصمصت شفتيها، وقالت "يا م ربي فغير ولدك،يا

بابي في غير أرضك !"وعندئـــذ رجعـــت إلى تجارهـــا الأولى، الزواج، لكن هذه المرة مختلفة، وإن كانت لا تخلو من الفائدة، فالزواج من أجل أن تنجب ابنا، تورّثه، ففعلت مثـــل ملكـــة النحل ،اختارت من هو أصغر سنا، وبعد ذلك ستطردهما معا : الزوج، وشعبان؛ أصبح هناك البديل ، راقبت الـــشيخ عطيـــة الضرير (إمام جامع السقاري) في ذهابه وإيابه، وضعت خطة للإيقاع به، تارة باستشارته، وتارة أخـــرى بالـــشكوى مـــن وحدهّا، وجحود شعبان الذي تفرغت لتربيته بعدما رمته أمه، وهو رضيع في حجرها وتزوجت من المأذون الـــذي طلقهـــا ،اكتشفت نقطة ضعفه؛ فملأت بطنه بما لذ وطـــاب ،اطمـــأن لها،حكى لها عن لسان زوجته السليط ،وسخريتها من عاهتـــه أمام المصلين؛مما جعله أضحوكة الحي كله، وهذا لا يتناسب مع ثقله الديني في المنطقة الأزهرية.

"أنا مش عارفه إيه اللي جابرك ع الجوازة دى؟"

حكى لها عن قضايا النفقة التي ترفعها زوجته "تأخذ حكما تنفيذيا إما الدفع، أوالسجن، فأعود إليها في كل مرة صاغرا"

بعدما اختبرت قوته الجنسية، وأنه مؤهل لأن ينجب لهـــا الابن المنتظر

"طلقها، وأنا هاتكفل بكل المصاريف"

ارتعبت نديرة عندما رأت سيارة تتعقبها، حاولت الهروب منها، دلفت إلى مترل الأسطى سمير الذي يقع في مقدمة حارة فهيمة ، واثناء سرعتها لم تنتبه لسقوطي بفستاني الجديد في الوحل، فاحتضنني الأسطى سمير وهو يوبخ السائق الذي انكفأ فوق عجلة القيادة من شدة الضحك، هجمت عليه نديرة، كانت على استعداد لإحراقه بالشتائم لكن عندما رأته؛ خرجت شتائمها ضاحكة "هو إنت، أنا كنت أحسبك مت!"

أخذ الدكتور باهي يشرح مخططه على خريطة الحي السقاري: تحتل حارة فهيمة مركزه؛ خلفها من جهة الجنوب جرذم النخيل، والبحر الذي يفصلها عن الجرن الذي تحول إلى عشش الغجر، ومن أمامها جهتي الشرق، والغرب تتفرع حارتي: الحاج قمر،ورشوان الذي يواجههما جامع السقاري بشكل أسطواني يصل إلى المقابر خلف (حارة الحاج قمر) عن طريق مساحة أرض بور، تحولت إلى مقلب من القمامة، ثم احتلها الغجر (عندما ازداد عددهم)بنوا فيها عششهم من الطين، وسعف النخل،ومن أنقاض الكوبري القديم الذي كان يغطي البحر ؛سقفوا بخشبه عششهم،وتم تعرية البحر من تلك

الجهة،لاستخدامه في الاستحمام ،وتربية الأوز، والبط وغسل الحمير التي تجر العربات الكارو، أما في الجهة الغربية، توجد الكنيسة الملتحق بها صيدلية الراهبات ،وملجأ العذراء.

"الخطوة الأولى بدأها رجب الحوشي عندما بنى عماراته الثلاث "

قاطعته في سخرية"التي بناها شعبان الذي سبق ، وإن تمرّد على بناء عشة فراخ للصول، اثناء تجنيده! "تجاهل الدكتور باهي مقولتي أو ربما لم يفهم معناها، ولكنني رأيت النار تخرج عليّ من فوهة عين رجب السليمة .

"أسفلها جراج للسيارات النقل، وحوانيت معظمها للبقالة، ولكن مازالت هناك عشش الحوش" ؛انقبض قلب رجب الحوشي ،امتقع وجهه، مازال يمارس تجارته القديمة، ومازالت بين العشش تختبيء عشة الخمس نخلات ، ابتسم له باهي، كأنه يقول له :"هناك أسلوب آخر متحضر"؛فتنفس رجب الصعداء، وبادله نفس الابتسامة الماكرة،"لو تم هدم حارة فهيمة ،وقطع أشجار النخيل ،وردم البحر سيتحول إلى حي تجاري زاخر بالحوانيت التجارية والسوبر ماركيت وصالات للأفراح وفنادق صغيرة لليلة الواحدة ومراكز للتجميل ونوادي فيديو، وكوفي

نيت، وتوكيلات المحمول وغيرها من المنشآت التي ترضع الحي، و يمكن أن نصنع له تاريخا جديداً مهيجـا للعاطفـة الدينيـة والوطنية،فكل شيء قابل للصناعة حتى التـاريخ ، وسـوف يساعدنا على ذلك وجود جامع السقاري الذي يـزوره آلاف من محبي أولياء الله الصالحين، فبداخله خمسة صـناديق لجمـع النذور، ويمكن أن نضاعف الزوار، فمثلا ننسج أسـطورته في كفاحه ضد الاستعمار على مر العـصور، وأن روح الـشيخ السقاري هي التي دعت الحوش لكي ينتقموا له مـن رشـوان الفرعون،وأورثتهم الجرن بعدما كانوا مشردين في البلاد، وهي التي هدت عائشة الحوشية،وأسكنتها ضريحه ، وأعطتها بعـض كراماته ؛عندئذ سيتقبل أهل الحي وجود الحوش بطريقة قدرية، المكان هنا له روح وله لغة ،تجعلاه قابلاً للتطور،للجذب،مثل المرأة التي تدخل مركز التجميل، فيحولهـا إلى امـرأة جذابـة قادرة على تحقيق أهدافها المعلنة، وغير معلنة، وهذا ماسيحدث في حي السقاري أن نحوله إلى مكان عبقري قادر على تحقيـق أهدافنا.

١٣

"إنت ليه مارحتيش بيت جدي بدل ما تقعدي زي مقاطيع السيدة؟"

حملقت نديرة في وجهي، ثم هزت رأسها في استغراب

"إنت ناسيه إن بيت جدك اتحرم عليّا للأبد "

تحرك شعبان ونزل من فوق الكنبة، يفرك كفيه من شدة الغيظ "دي بنتك لسه هاتدخل ثانوي، أنا اشتريت فستان الفرح عشان تأجره كلثوم، فيساعدها على المعايش، إنت عارفه أن ابنها هاجرها، وكمان الأوضه باعها لرجب قبل سفره، وحتى الدكان فاضي ،ونضرها على قدها ،يرضيك نسيبها تموت من الجوع ؟!"

انفجرت نديرة غاضبة، احمرت أرنبة أنفها "ماتحاولشي ،الفستان ده علشان جيداء لما تتجوز"

أصرت نديرة على مغادرة المترل، اختطف حقيبة ملابسها بقوة، فتعثرت فوق العتبة، نهضت، وهي متشبثة بالحقيبة، وأهالت بها فوق صدره ،دفعها، التف أهل الحارة حول صرخاتها القوية؛ انتهزت الفرصة، هرولتُ إلى مترل جدي، وأخبرته أن أبي ضرب أمي (أعطيتهما لقب الأبوية أمام جدي،

لا أدري لماذا)،وشتمها في وسط الحارة، هرول الحـــاج قمـــر حتى وصل إلى ابنته ،جذبها ناحيته، رفع الكوريـــك في وجـــه شعبان

"هاتعملك نفس، يا أ قرع "

تذكر شعبان حادثة انتزاع شعره الذي عجز،عـــدا بعـــض الشعيرات التي نبتت هنا وهناك بطريقة غير منتظمة تذوق طعم بول فهيمة للمرة الألف، تقيأ، هجم على الحاج قمـــر، كـــاد يخنقه لولا تدخل الأسطى سمير، سحب ابنته نديرة وأنا خلفهما "لازم يا جدي تطلقها، دي هيبتك ضاعت "

استقبل الحاج قمر ببرود مجلس الصلح الذي يضم وفد ا يمثل حي السقاري كله ،على رأسهم الأسطى سمير

"أنا هاطلق بنتي، وهاجوزها لظابط"

انتفضت نديرة عندما سمعت كلام أبيها، اقشعر جـــسدها، ارتدت العباءة السوداء،والطرحة، قبضت عليّ بكفها اليسرى ، وقالت"طلاق إيه وظابط ايه؟ أنا جيت شويه علشان اتعزز، ده ضفر شعبان بكل الرجاله اللي في الدنيا كلها"

شدها أبوها من ذراعها "لو روحت معاه، البيت ده متحرم عليك"

* * *

"أيوه رحت عشش الغجر بعد جوازي منـــك ،أول مـــرة كنت عايز أتشفى في رجب، قال إيه عايز يخطفـــك مـــني ؟ دخلت عشة الخمس نخلات، عشان أدوس على شرفه ،وأثبت له أن عيشه مجرد بضاعة رخيصة لكل زاير حتى ولـــو كـــان المشتري عدوه ،الغريب اللي هاجمني رشوان، والأعجب اللـــي رتب لي ميعاد معاها هو رجب، وقال لي"عيشه مجرد تجـــاره، والشرف هوالمكسب"ماعرفش ازاي قدر يصاحبني، لما طلعـــت من الجيش ،كنت طالع منه يامولاي كما خلقـــتني ،وجيـــداء كانت في سن المدرسة ومحتاجه مـــصاريف: لـــبس، ودروس وكتب، كان نفسي تطلع مهندسة، أقنعني أبـــوكي واشـــتغلنا عنده وبنينا له عماراته التلاتة اللي بيستعبد بيهم الناس"

هرولت نديرة تبحث عني ،عندما هربتُ خلـــف رجـــب، خاضت في الوحل، فتشت كل العشش، رأتني، أرتعد، جلبابي ملطخ من أطرافه بقطرات دماء، احتضنتني بقوة ،كأنها تريد أن تدخلني إلى رحمها مرة أخـــرى، لفـــتني بالـــشال الأســـود،ثم خطفتني للخارج، تاركة جسده العجوزي، يـــسيل بفحـــيح الغريزة، صدره يعلو ويهبط في ارتعاشة قوية، أثبـــت الطـــب الشرعي" إنها مجرد خدوش بصباعه".

"مش هارجع إلا بعد المليون "

ضحك شعبان عندما رأى رجلا ضخما يخرج من حجـــرة نوم عائشة، يرتدي عباءته الحريرية ،وبدأ يهندم عمامتـــه، ثم أشار بيده لعجورة،وهو يبتسم رافعا إصبعيه(دلالة على جودة البضاعة) ثم خرجت خلفه عائشة مهوشة الـــشعر، تـــضحك بطريقتها الهستيريه .

"وعيشة هي اللي هاتجمع لك المليون؟ بس أنـــت نـــسيت تزرع لها نخلة علشان تتعلق بيها من الوحل اللي ذرعتها فيـــه ؛كده ممكن تتجنن".

هدده شعبان بإبلاغ السفارة ،واستغلاله لعائـــشة ،عاجلـــه عجورة برشوة الكفيل الذي رحلّه عن طريق الشرطة، فخـــسر شعبان مدخراته لمدة شهرين ،ومعظم الهـــدايا الـــتي ادخرهـــا لنديرة، وجيداء مدة ثلاث سنوات .

١٤

"هل أحضر لك كأسا؟"لمعت عيني أومأت بالموافقة ، إنه الوحيد الذي يثبت لي أنني بنت أبي، على الرغم من حصولي على مجموع الهندسة ،رفضت تحقيق أمنيته الوحيدة، ودخلت الآداب، وعندما كانت نديرة تفتخر بي أمام نسوة الحي" بنتي عبقرية ،بتجيب امتياز كل سنة "

فأخرج عليهن عارية متهتكة، سكيرة، ألسعهن بلساني.

" البت دي طالعة ذي أبوها "

تسمر بصري فوق قفل حجرة نوم الدكتور باهي ،اتسعت ابتسامة السكرتيرالذي يراقبني ،أخرج المفتاح من جيبه، وقال "هل تحبين زيارة الحجرة المحرمة ؟" انتفضت واقفة، وقلت بصوت حماسي "نعم"،أسرعت في الدخول، تحركت في حذر ،كأنني أسير فوق الماء، ألمس كل شيء بقداسة، فحصت عيني السرير الحديدي المبطن بثلاث مراتب فوقهم مفرش من الستان الأزرق الباهت ،معلق فوق شباك السرير الجلباب الأسود الممزق من الخصر إلى أسفل، والذي لبسه في المرة السابقة التى تصورته امرأة ،ودفعني الفضول إلى ارتداءه، واصلت خطواتي الخفيفة إلى الصندوق الضخم، وقفت أمامه، ثم تراجعت

* * *

"من يوم ما رجعت من الغربة، وأنا حاولت أقطع علاقتي بحي السقاري، بس لما عرفت إن شعبان هو اللي كان بيصرف على أمي لحد ما ماتت ،وهواللي كفنها على حسابه، حبيت أوريه نفسي، وأني أصبحت أحسن منه ، ده أنا سافرت سبع سنين، وعندي أكبر شركة مقاولات، بيشتغل فيها عشرين مهندس زي بنته اللي كان عايز يدخلها الهندسه، فقر وعنطسه، لما شفتها في الاجتماع، كبرت، صورة طبق الأصل من أمها ،أفتكرت نديرة لما شفتها عريانه في أوضتنا في ليلة جوازها، لما رمت المرايه في حجر كلثوم اللي جسمها رقص من شدة الضحك عليها، وقالت لها "أعملك إيه؟حواجبك هي اللي تقيله، ووشك أحمر من أبوه"عاركت نديرة،وصممت أنها تلزق لها الشعر تاني في حواجبها زي ماكان "أمشي كيف في الحارة،يقولوا إيه؟، رقاصة ماشية في الشارع!"

ولما شفت حيداء، اتمنيت أنها تكون بتاعتي ؛لأني ماقدرتش أقول حتى لنفسي أني كت بحب نديرة من قبل ما يشوفها شعبان ،عرضت عليه أنه يشاركني في مناقصة بناء سلسلة مصانع، وأنا عارف أن عدته ما تنفعشي لصب عامود واحد، ومع كده كان عاوز يوديني في مصيبة، ويقول إني باغش في المونه، غرسته في العملية وانسحبت، ماقدرش ينفذ، واتحجز

خشبه لمدة سنة،صرف اللي حيلته، وبـــاع حـــق الأجهـــزة الكهربيه ،واستلف من طوب الأرض ولما عـــرف أن نـــديرة حاتلي علشان أدخل في العملية من تاني، باع لي الخشب بنص التمن، وقعد في البيت، ولما بنته العايقه عايرته"قاعد ولاشـــغلة ولامشغلة"، طلب مني يشتغل عندي بالأجرة، ولمـــا نـــسي، وحب يدخّل في المواصفات، ويهددني تـــاني؛ شـــتمته قـــدام العمال، "أنت زيك زي أقل عامل هنا، برمي لك الأجـــرة ع الجزمه"بعد كده عرفت أن حالته تأخرت، زرته وعرضت عليه أني أتجوز جيداء وسفره يتعالج في أمريكا وأعوضه بعدة أحسن منها ويرجع تاني مقاول بس على كبير، رفض، وقال لي أنـــت مش من مستواها "ياجي يشوفها دلوقت واحدة مدمنه، باعت شرفها قبل عقلها لتاجر في كلام مستورد".

١٥

فجأة وأنا في طريقي للمترل، تاركة نديرة تجمع حاجيـــات فهيمة (التي فقدت عقلها بوفاة شعبان ،وجلست أمام الجامع، تشحذ)، كي تأخذها معها للمترل،وهذا شرط عودتها معـــي، فجأة طافت في روحي ابتسامة حسام الملائكية ،تذوقتها ألـــف مرة، فأشعر في كل مرة بالإشباع الروحي، واتراهن مع نفسي أنه فقدها ،وعاودتني صورته، وهو يحمل زميله إلى مستـــشفى الجامعة، ويتفصد جبينه عرقا، ونحن في عز الـــشتاء. "أراهـــن عليك ستصبحين معيدة في قسم الفلسفة، ليس لأنه هو يريـــد ذلك، ولكن لأنك تستحقين ذلك"

سألت نفسي، لماذا لم أفكر في زيارته؟ رغـــم أن مـــترل الدكتور باهي لايبعد عنه ألا بكيلو متر؟ بطريقـــة لا إراديـــة، رأيت قدمي تقودني إلى موقف السيارات ،استرجعت وأنـــا في طريقي حكاياته الشاعرية عن النجع وعن مترله.

"النجع مثل قطعة من الجنة مزروعة في وسط جهنم، أرض خضراء تائهة في وسط صحراء، ليس بها أية خدمات، يجب أن نسير مسافة كيلومتر على أقدامنا لكي نصل إلى وحدة صحية بها: طبيب واحد، وممرضتان، وتومرجية، كلما نزلت النجـــع،

أتذكر حكاية السيدة هاجر، وابنها أسماعيل عنـــدما تركهمـــا سيدنا ابراهيم في واد ليس به زرع ولا ماء،أما منزلي يـــذكرني بكهف أهل الرقيم، فهو موجود داخل منطقة جبلية، سقفه أقل ارتفاعا من قامتي بعشرين سنتيمترا، عبارة عن حجرة تنام بهـــا أمي، أما أنا فكنت أنام في الشتاء في الـــصالة بجـــوار الأواني، وخزين اللفت والمش، وفي الصيف ،أنام خارج الكهف، أقصد خارج المنزل، في صحبة نباح الكلاب، ومع ذلـــك دخلـــت الكليـــة، أشـــتري كتـــب الفلـــسفة، والـــشعر ،أكـــوي ملابسي،أعطرها ،أحضر عروض الإوبرا ،كل ذلك من عملي أجير في أحد حقول الدكتور باهي (الذي يدرس لنـــا مـــادة الفلسفة الأسلامية ورثها عن خاله العمدة)، لـــيس مهمـــا أن نمـــارس شـــيئا نكـــره، ولكـــن المهـــم أن نـــنتج شـــيئا نحبه،فالشعر،والعلاقة مع كل ماهو أنثوي أكثر الاشـــياء الـــتي أحبها"

اندهشت عندما رأيت كل المنازل مفتوحة الأبواب، خالية من الحركة، اضطرب صدري بقوة، جلست فوق جذع نخلـــة مقطوع نابتا في أحد المصارف، تندمت "كان لازم أهاتفه "

فجأة رأيت طفلاً نحيفاً ،عارياً، يخرج من المصرف ،يخـــبيء قرموطا في سرواله، فهو نفسه يشبه القرموط في التواءاته "كل أهل النجع بيسمعوا ندوه الأستاذ حسام، ده فيه ناس باشوفهم في التلفزيون بيحضروا الندوة "تأمل جلبابي الأسود الممـــزق، وتلعثم "لوكت باخد مصروف كت عطيته لك، بس أنـــا لمـــا

أشوي القرموط ،هاوكلك منه، زي ما قال لنا الأستاذ حسام نطعم الغريب، ولو كان عدو "

احتضن يدي وظل يتعرج بي بين الأزقة، الحواري، الشوارع الضيقة حتى وصلنا إلى مساحة فضاء رملية تطل على فيلا فخمة، ذهلت "هل هذا كهف أهل الرقيم كما كان يدّعي؟! "فوجئت بكم الرءوس المنتشرة في كل مكان "كأنه يوم الحشر"، تأملت سيارات المرسيدس ،فجأة طارت يده الطفولية"هأروح أشوي القرموط"

اختفى مع دخان إحدى السيارات التي توقفت لتوها، خرج منها رجال، وسيدات تداعب عطورهن أشجار النخيل، جلست خلف النسوة بعيدة عنه بعشرات الأمتار، يأتيني صوته عبر الميكرفون، يطرب سمعي لمجرد سماع نبرات صوته، وانتظرت ابتسامته تتألق فوق وجهه النوراني "دائما أحب قبل أن أبدأ كلامي، أن أوضح بأنني لست عالم دين، ولكن هاوٍ دين، أستمتع بقراءة القرآن كما يستمتع الطفل بالنوم في حضن أمه، جعلته صديقي الذي يعريني قبل اعترافي، ويشفيني قبل اعتلالي، ولا أدعي علما يفوق الآخرين، ولكني أبحث في روح القرآن، كي تتآلف مع روحي ،فتجليها من صدأ الغرائز والتطلعات

المريضة، خاصة في مجتمع تغلف بقصدير المــصلحة، وبـــرواز الربح، بالأمس شاهدت جثة طفلة لم يتجاوز عمرها الـــثلاث سنوات، مفرغة العينين، والبطن ملقاة في إحدى ترع النجـــع الذي تحول إلى ممول للمجتمع الاستهلاكي المستغل العـــالمي، رفضت الأم استلام جثة ابنتها حيـــث قالـــت "إذا أردت أن تشاهد مروج الجنة، فعليك أن تنظر إلى عيني ابـــنتي؛ عندئـــذ ستتمنى أن تسكن داخلهما "ثم هرولت تبحث عن كلمة مامـــا التي فقدتها للأبد ،علينا أن نواجه هذا المجتمع المنتهك،الجاحـــد، علينا أن نتمسك بروحانيتنا قبل أن نجد أنفسنا ممزقين كأعضاء، معلقة في السوبر ماركت، كل عضو عليه تـــسعيرة، ومعلـــق بجواره شهادة ضمان::القلب ،الكلية ،القرنية،الكبد ، الرئـــة.. وإلخ ؛الانتماء الروحي هو الحل، وسنكمل في الحلقة القادمة "

سألت نفسي "ما الذي أنتظره ؟ ولماذا جئت إلى هنا؟ وماذا سأقول ؟"أنا التي رفضت أن أشاركه ســـجادة الـــصلاة منـــذ سنوات،يجب أن أنصرف، انتبهت على أعينهن تحفـــر أجـــزاء جسدي العارية، لم أتعرف على وجوههن سوى وجه واحـــد، كنت أعرفه جيدا، كانت صاحبته تعتبرني غريمتـــها، وكنـــت اعتبرها سبب خسارتي، اقتربت مني مرتدية عبـــاءة بيـــضاء، وخمارا ابيض ونقابا أبيض، حملقـــت في بعينيهـــا المنحـــرفتين

المدفوستين بالكحل، وقالت في اشمئزاز : الشيخ ما بيقبلش اللي زيك".

رفضت عروضهن: العباءة، الخمار ،النقاب،طردتني، عندئذ صممت على مقابلته ،وانتظرت حتى غــادرت الــسيارات، واختفى عبير العطور مع آخر قافلة ،هرولت إليه؛ أحمر وجهــه من رؤيته لي، وربما من ملبسي بعد لحظــة اســتعاد هــدوءه، وابتسم نفس ابتسامته ،بادلته الابتسامة ،وقلت له "مازالــت غنيا بها "ناداني كما اعتاد أن يناديني "يا جيداء الــروح"لكــن نبرته عبقت بالإيمان، لم ينتقد جلبابي الممــزق العــاري حــتى شعري الحليق لم يعلق عليه، ولكنه قــال "أمازالــت أســيرة أسطواناته؟".

١٦

أخذني سؤاله إلى منظر الدكتور الوحشي عندما رآني ارتدى جلباب أمه، واكتشفتُ شفرة الكأس التي تحوي ملفاته السرية" بالنسبة لجيداء، فإن الايقاع بها سهل، إنك لو وضعت كلبا ميتا أمام انسان جائع سيأكله، وهو ممتن لك؛ فما بالك بشخص جائع منذ عشرين عاما ! اعتقد أنه سيعبدك حتى تتحلل أفكارك، وتسقط مع براز عقلها ، فجيداءك هذه انتقلت من وثنية الذكورة الآثمة إلى وثنية الأفكار الشاذة، عليك أن تشكرنا لأننا جعلنا كائناً جميلاً مثلها يعبدك، وتطبق معه سلوكياتك الشاذة، أدعو لمحاضراتي"

جرني بأقصى قوته، أخرجني من الصندوق، إنني لم أشعر بالألم الجسدي، لكأنني مغيبة عن الوعي، ما اكتشفته خدر أجهزة الإحساس عندي، خلع ملابسه ، أصبح عاريا كما ولدته أمه، وبدأ يهذي بكلمات متفرقة كأنه أصابته نوبة صرع "أنا الوحيد الذي نمت مع عروسة أبي في ليلة الدخلة ،أقصد في ليلة مقتله ، وتعفن خالي في السجن، ولوعاش والدي دقائق بعد رصاصة خالي لقتلته بيدي ".

أحسست كأن قنبلة فجرت جسدي أشلاءً..

"اغتصب أمي أمام خالي، وأخوتي، والقرية كلها؛لكي ينتقم من خالي لأنه حرم أمي من الميراث، مزق جلبابها من فوق الكتفين ،ومن أسفل سرتها حتى نهاية أطرافه، حاولت أن أرفعه من فوق جسدها المكدود لكنني عجزت، كان كالجبل، لكماتي الضعيفة راحت سدى أمام جسده الفحولي، كل مافعلته، خلعت جلبابي الصغير، وسترت عانتها من تلعثم المتفرجين، صرخاتها مازالت تضغط فوق صدري حتى الآن، مازلت أرى قامتها المنحنية، وجهها الذي يطفح بالخجل، سجنت نفسها داخل تلك الحجرة في هذا الجلباب الفاضح، تندب حظها في المواويل الصعيدية الحزينة؛كل ذلك دفعني للانتقام منه، واغتصبتُ عروسه التي اختارها في جنازة أمي استمرارا لتحديه لخالي الذي قتله مفتخراً أمام أهل القرية، إنها اللحظة التي انتظرها لمدة شهر ،(عمر فضيحة أمي)،ورفضتُ أن أشهد عليه، لكنه اعترف على نفسه،كتب لي كل ممتلكاته وحرم أختي التي اختارت أن تعيش مع عمي، وتزوجت ابنه، أختي تشبه أمي، وبسبب هذا، لم أزرها أبدا،وسأحرمها من الميراث "

أردت التخلص منه، بدأ يغني في هسيتريا:

"بيتك فين ياسمرة　　　عند البحر قدامه شجره "

وبدأ يحكي قصة الأغنية ،وهويقبض فوق ذراعي

"في جنازة مراته اختار واحده، وهي بتندب قال لها:" بيتك فين يا سمره"، ردت عليه، وقالت" عند البحر قدامه شجره "

حاول أن يغتصبني بنفس الطريقة، لكنه طردني في اللحظـــة الأخيرة، وهو يصرخ باكيا " أمي، أمي " !!

تدحرجتُ فوق درجات السلم، تذكرت حادثـــة ختـــاني بجوار الفرن البلدي، يد كلثوم الضخمة تمسك بالموس ضحكتها التي تبتلع صرخاتي، وصية أمي لها "أقطعي بزيادة "

كتمتْ الدم السائل برماد الفرن

"إنه نفس الفرن الذي شهد مأساة الطفل شعبان" .

" أنا كنت باشوفه خارج إطار العالم ، كنت مؤمنة أنه قادر أن يفرض قوانينه على العالم كله، كلماته بمثابة مسلمات ليس لها برهان" .

تأمل حسام حبات المسبحة، بدأ يحركها بسرعة، استأنفت حديثي، بنفس متقطع من شدة انفعالي "حججتُ سبع مــرات حول صنم نحت داخل اسطوانة كمبيوتر، كتبــه ، مقالاتــه ، مؤتمراته وأبحاثه، حتى أدق علاقته بي ،كان من خلال تعليمات، يستقبلها عن طريق اسطوانة،إنه كان أكثر إجراما من الآخرين أنه اغتصب عقلي وهذه هي المنطقة البكــر الــتي ظننــت أني أحتفظ بها لنفسي ".

استغفر حسام" ماذا لو كان أخبرك ؟هل كنت سترفضين؟ حكاياتك عن حي السقاري، والاسطوانات العشر التي فرغتِ فيها كل تفاصيل حي السقاري حتى علاقاته العاطفية ، حــتى أحلام البسطاء، هل تعرفين ماذا يحدث لهم الآن ؟ ما الــبرامج التي يحشو بها عقول الآخرين الذين تمت هجرتهم،أو تهجيرهــم بالمعنى الأصح لماذا يــشتري رجــب الحوشــي المؤســسات

الحكومية الخاسرة ؟ ثم يبيعها له ؟ لماذا حصل عجـــورة صـــبي البنّاء على شركة مقاولات، يعمل فيه عشرات المهندســـين ؟- القضية أكبر من خداعك، أكبر من مساحات البـــوح فـــوق مصطبة الدكتور باهي في صحبة الشاي المملّـــح ، القـــضية أن باهي يريد أن يخلق دولة داخل دولة، تحكمها أفكاره الـــشاذة التي تشقلب كل الأعراف ،والقيم المجتمعيـــة ، ربمـــا انتقامـــاً لآلامه، لإهانة أمه،لخيانته لأبيه ، لمعاملته كألعوبة مـــن قبـــل ضيوف خاله،في النهاية : العالم الذي يريـــد أن يخلقـــه،عـــالم مُدمَّر".

* * *

الحاصل هوعبارة عن حجرة داخل منزل فهيمة، ولكن لهـــا باب خـــارجي منفـــصل ،كـــان يعتكـــف فيهـــا الـــشيخ السقاري،ويقال إنه كان يجتمع بكل أولياء الله الصالحين الذين كانوا يطيرون إليه من كل انحاء العالم السفلي اختارت نـــديرة تلك الحجرة لتدفن ابنها فيها،كـــي يـــأتنس بـــروح الـــشيخ السقاري، وأرواح أولياء الله الصالحين التي ظل يجتمع بهن، كما روت فهيمة التي ظلت تملأ أناء الماء للوضوء، وفي ثاني يوم تجده فارغا،وسارت نديرة على دربها، الحقيقة التي أعرفها أن تلـــك الحجرة أصبحت مقبرة، دفن فيها شعبان وابنه .

هرولتُ إلى الدولاب ، جذبتُ الحقيبة التي دُفن فيها ملابس الولد الذي سجن أمومة نديرة حيث اعتكفتْ أربعين يوما فوق مدفنه ، جبروت فهيمة لم يثنها عن دفنه في الحاصل، وتحويلـــه إلى مقبرة محرمة على الجميع،أمسكتُ بالملابس ،وألقيتُ بها في باطن الفرن المتوهج ، امتزجت رائحة ملابسه المحترقة بخصلات شعري اليقظة ، التي قصصتها بحد السكين ، رقـــصات النـــار المشتعلة،ذكرتني بمشهد الزائرة الصحية التي جذبتني من كتفي ، أوقفتني أمام الطابور المدرسي، نزعت الإيشارب عن شـــعري المنكوش ، القذر ، ألقت بجملتها في الميكروفون الإذاعي، بعدما حذرتهن من مصاحبتي، وقالت :" دي مزرعة قمـــل ، قـــولي لأمك تحلقه ، ما دام ماعندهاش وقت تنـــضفه ،وأي واحـــدة هاتصاحبها هاتبقي زيها ".

ضحكت بهستيرية في كل الوجوه التي تحملق في جـــسدي العاري، وشعري الطويل المنكوش، وصلت عمارة الحوشـــي ، رأيته نائما، مفترش السرير، دفعته بيدي ، اســـتغرب، التفـــت ذرعاه الخرطوميتان حول جسدي ، نفضتها ..

" صحيح إنت اغتصبت عيشة ؟،عشان كده هربت! "

"طلبتُ من جيداء أن تلبسها الجلابية القديمة قبـــل دفنـــها، البت اتجننت، فضلت تضربني باللكمية في صدري، وهـــددتني بالبوليس ،بدل ما أشيل جتة عيشة ،شلتها ،وحبستها في عشة

الخمس نخلات، ورجعت حطيت عيشة في شوال، ووصـــلت بيها إلى المدخل الوراني للجامع ، وحطيتها قدام أوضة الضريح الفاضي، وخلعت جسم الضريح الخشبي المسوس، وحفـــرت تحته، و دفنت عيشة ،وبعد كده وضعت الضريح فوقها غطيته بتوب حرير جديد (رقم واحد) ولفيت الضريح بعشرين شمعة طول الواحدة متر، ،ولعتهم قبل خروجي،و فضيت تلات قزايز عطر من المستورد ، وقفلت حجرة الضريح بنفس المفتاح اللي سرقته من الشيخ عطية اللي بيجر المصلين، عـــشان يتبرعـــوا إجباري في الصندوق الملان بالصراصير ".

ذُهِل المصلون في صلاة الفجر عندما رأوا الثوب الحريري، الشمع المضاء، والعطور التي تغسلهم، كبّـــروا هللـــوا، لكـــن الضريح المائل كاد يسقط، حاولوا إصـــلاحه، فـــسقط، ممـــا أضطرهم إلي تثبيته ، فحفروا كومة الرمال الـــتي أســـفله ،رأوا جثة عائشة لينة ،كأنها دفنت من ساعة.

" حي السقاري ليس كأي حي، أجساد رجالـــه نحتـــت بصخر التاريخ، وقلوبهم مشبعة بالكتب المقدســـة ،بأيـــديهم رُفعت المئذنة، وعُلقت الأجراس،لن يُستسلم ، سوف أمـــسك إمامة جامع السقاري، أما أنت ستتعهدين بتربيـــة الأطفـــال،

وتشاركين أمك في توعية النسوة،خصوصا بعـــد زواج بطـــة، وتفرغها لرعاية سمير ،طبعا بعدما تتقدمن بـــشكوى جماعيـــة، تتهمن فيها رجب الحوشي بأنه قتل عائشة، ودفنها في الضريح الفارغ " استغربتُ.

"نعم، ستأنتظرك، أسبوعيا لاستماع النـــدوة، إنـــني أرى بداخلك طاقة روحانية في أسمى مراحلها ،لـــديك الموهبـــة في استقطاب عقول الآخرين".

انتفضت واقفة، وأنا مبتسمة، إنها نفس مقولـــة الـــدكتور باهي، رأيت عينيها تطردانني، وزعت بصري بينهما.

" أما زالت تبحث عمن تشاركك سجادة الصلاة؟! "

ابتسم " نعم ،بالأمس كنت أبحث عن واحـــدة، أمـــا الآن أبحث عن مليارات نصلي معا من أجل الأمن والسلام "

رأيتني، أتحرك بخطوات ثقيلة نحو الباب ، ارتعـــد جـــسدي عندما رأيت الرجل " النخلة " الذي تُعشش في وجهه ذقـــن محناة عندئذ أيقيت أنه سيخسر ابتسامته للأبد .

* * *

صممت نديرة علي اصطحاب فهيمة للمترل، فقــد تعلــق عقلها فوق الكفن الذي حمل شعبان إلي باطن القبر جلــست بجوار الضريح، تشحذ النــذور،عنــدما رأيتــها في حــضن نديرة،ذهلتُ، انكمش جسدها، تحول إلى جسد طفلة صغيرة، فانكمشت ذاكرتها إلى القرن الماضي ،عنــدما باعهــا خالهــا وعمرها عشر سنوات إلى الشيخ السقاري سبعيني العمر طمعا في الجرن الذي استولى عليه رشوان الفرعون، حاولت فهيمــة استعادته بعد ثلاثين عاما بزواجها من رشوان المجنون، ولكــن كانت تنتظرها عائشة ،تذكرت أخاها الــذي قتلــه سمعــان الحوشي في رهانه ، فوضعت لسمعان السم في إنــاء الــسمن المخلوط بالعسل ،تذكرت الكلب الذي افتدته بزوجها الثاني، كان عقلها يُرَد أليها خلال فترات متقطعة، فتتشاجر مع الشيخ عطية ، تجره كل يوم جمعة إلى قبر شعبان في الحاصــل، يقــرأ سورة ياسين ،ثم تضع في حجره كل النذور التي شحذتها طيلة الأسبوع، أوصت بدفنها معه، في نفس الحاصل.

"لما رفضتني نديرة قصاد الحي كله، قررت انتقم من شعبان، قررت أشتري حارة فهيمة كلها،وأطردهم منــــها ،ســـجنته ، رفض يبيع ،أما هي وقفت زي الغول قدام البلدوزر ،ولبـــستني همة بالكدب، وبطة اللي كانت موافقة تبيع لي الأرض اللـــي ورا الكنيسة، حرضتها، فمارضتش تبيع ،وعملتها حضانة ودار أيتام، ولما حرقته،كات بتدور تلم تبرعات، واتفتح من جديد، لو كنت اشتريت الملجأ كنت بنيت فيه عمارة فوق ســـطحها صالة أفراح وتحتها كافتيريا للحبيبة، وحاجات من اللي بـــاسمع عنها ،بسببهم خسرت الجلد وصائت ،بس أنا وراهم والـــزمن قصير.،وأنا بفكر إزاي انتقم منهم ،"هادور لي علــى شـــريك يكون له نفوذ وأهد الحي على اللي فيه"، ماكنتش عـــارف إن الزمن شايللي أجمل انتقام ،بصيت لقيتها قدامي فكرتني بأمها، وهي عروسة جديدة ، شايله البستلة من خمستاشر سنة ، بتنهج من الجري وهدومها غرقانه في عرقها، والعبايه ملزوقـــة علـــى جسمها الفاير اللي فجر كل غرايزي اللي نشفت من خمـــسين سنة ". تركتُ الكمبيوتر يحكي قصتي مع رجب الحوشي منـــذ أول زيارة له، بعدما نزعت نديرة ملابسي، لم تكن تـــدرك أن كذبتها تحولت إلى حقيقة ،حاول أن يحدث فتنة بين شـــعبان

و نديرة كما فعل في فتنة ملجأ العذراء،صمم على زيارة شعبان اثناء مرضه الأخير،وانتهز الفرصة،وهدد نديرة،إنه سيفشي سر علاقتي به، هرولت خلفه ، عندما رأى شعبان يراقبهما من الشباك ، ترنح فوق كتفيها ؛أدعى بأنه تعثر في ماسورة المجاري المكسورة .

اعترف عجورة أنه أحبني لأنني أجمع بين نموذجين: أحبهما، وكرههما في نفس الوقت " نديرة وشعبان " وبأنه طلب الزواج من نديرة بعد موت شعبان ،ولكنها رفضت، فلجأ إلى شبيهتها ، لكن نديرة تُمثل لديه النموذج المثالي حيث تجمع بين الجمال والعفة ، دفنت كل غرائزها بموت شعبان الذي فقد كل شيء قبل موته " ماله ، خشبه ، صحته، لكنه التحف بالشرف والأمانة ... "

* * *

لأول مرة أبكي حتى سكرت من شدة البكاء ، تحاملت على نفسي ، رأيت قدمي تقودني إلى منزل الأسطي سمير، سلمت على كل صور القديسين الملتفة حولها الشموع المضاءة، لمست الصليب الخشبي الذي نُحت بداخله صورة العذراء،رأيت بطة تغسل وجوه الأطفال قبلا، أوصتني بهم

بعدما جف سيل الدموع فوق خديها المطفئتين، جلست إلى جواري " طبعا ها تحضري الفرحْ "

ألقيت بعنقي فوق مسند الكنبة، كأنني أريد أن أفصل رأسي عن جسدي، قرأتْ حزني، وإحساسي بالخجل

" أعلم ما يدور في رأسك، رغم ضياع شبابي، فأنا في الأربعين، وهو داخل قطار الخمسين، لماذا وافقت عليه ؟رغم إهانته لي برفضي في الكنيسة أمام الآب مطران، رغم هفواته مع غيري !"

اقشعر جسدي، جحظت عيني، تجاهلت بطء ردة فعلي الثائر " عندما رفضني أمام الكنيسة ،و ترك الأكليل وهرب ، قلت لنفسي يجب أن انتقم منه ، لكنني فكرت، كيف ؟ فأنا أفتقر إلى الجمال ، أما المال فقد زهده ، حتى شهادتي متوسطة، أقصى عمل يمكن أن توفره لي سكرتيرة محامي ، بدأت أعتصر عقلي ،كيف انتقم منه؟،كيف أستحوذ عليه ؟،كيف أحاصره بسيرتي ؟ منحني الأب مطران مزيدا من الاهتمام؛ لأنه شعر هو أيضا بالذنب حيث ضغط عليه كي يتزوجني ردا لجميل أبي في تربيته ، فكان يشركني في كل الأنشطة التي يقوم بها، زيارات الملاجيء، بيوت المسنين ، توزيع الصدقات ، جلساته في تفسير آيات الإنجيل حتى امتلأ قلبي بالرحمة التي أجابت على

سؤالي " خدمة الناس تجعلكِ مهمة، وخدمة الأطفـــال تهبـــك حب الرب، وخدمة المسنين تزرع قلبك بالرحمة " قـــررت أن أمتلك الثلاثة عن طريق استثمار ثـــروتي، ومـــساحة مـــترلي الشاسعة،فكونت في البداية مع نديرة ما يشبه حضانة ،خدمـــة أربع عشرين ساعة ، كل سيدة مرتبطة بعمل، بميعاد ، ســـواء كان ليلا أو نهارا تجد في مترلي متسعا لأطفالها في مقابل أجـــر رمزي، لجأ إلينا أطفال متشردين في الشوارع،ولقطاء ، تعلقت أملك بهم، وتحول المشروع من غرض الربح (لكي تـــوفر لـــك سنوات جامعة مريحة) إلى نشاط إنساني ، تصورتْ أن برعايتها لهم، تكفر عن رفضها لك،وعن عدواتك لها ، خاصة أنها هنا وجدت الولد الذكر الذي طالما بحثت عنه، وجدته رضـــيعا في فناء جامع السقاري الذي بناه شعبان، ويحمل لديها الذكريات الأولى من حياتها معه، فأطلقت عليه اسم شعبان الـــصغير ،في الحقيقة أنه يشبه شعبان بعينيه الخضراوين، وبنيتـــه القويـــة ، كانت تتمنى أن يكون ابنه ، حتى لو كان من امـــرأة أخـــرى " ياريت سبته يتجوز! " هي الآن تحمل نفسها المسئولية،وليس أنت" سألتك عندما قمت بزيارتي، ما مصيرهم ؟

" هل يهمك مصيرهم ؟" سألتني في خبـــث مـــن يعـــرف الإجابة،عاجلتني بابتسامة " لن أكذب عليك ، إنني فقدت كل

مدخراتي على هذا المشروع ،ما تبقى لي سوف أرعى به سمير، فأنت تدركين حقيقة مرضه ، أمك ايضا فقدت حماسها ،لأنها فشلت في استعادتك ،و التبرعات التي استماتت في جمعهـــا لا تشبع المشروع، فاكتفت برعاية شعبان الصغير ، لدينا خطـــة ، ربما تساعد المشروع ، إلى أن يحدث ذلك ، لمـــاذا لا تقـــومين بدورها في الوقت الحالي ؟

١٩

رجعت إلى المترل ، تأملت جدرانه لأول مــرة، تحســـست القوالب المختنقة بطبقات زيتية، أوراق ملونـــة، بحثــت عـــن شاكوش ، حطمت طبقات الدهان حتى قمت بتعرية القوالب، تأملتها، تحسست كفة والدي ،إصابعه الذهبية المنقوشة فــوق القوالب، تذكرت مقولة جدي الحاج قمر " أبوكي ده فيه كل العبر اللي في الدنيا ،بس فيه حاجتين مش موجودين عنـــد أي حد، عليه كف في وضع القالب ما يحتاجش لميزان ، وما يحبش أكل الحرام ".

اختلطت الحقيقة بالخيال في كل الحكايات التي جـــسدت عبقريته في فن البناء، فأنه يذهب إلى المكان قبل بنائه بيـــوم ، يجلس فيه ثلاث ساعات ، شبه معتكف ، يلمـــس القوالـــب، يرشها بنفسه، يتأكد أن كل قالب أخذ حظه من المياه، كأنهم في حالة وضوء، يظف الأساس من الأتربة بيده، وقبل أن يبني يتوضأ، ويقرأالفاتحة، يمسك بالقالب، يقربه من فمه، يهمس له، كأنه طفل يهدهده، يسوّي فراشه بالمونة الخفيفة، كأنها طبقـــة من الشيكولاتة،يقول للزبون " البنا الغشيم يحط كل همه علـــى المونة " بعد انتهائه من بناء الحائط ، يزنه بميزان الميه ، يبتـــسم

" ما فهوش الهوا، زي الحجر "يربت عليه، كأنه طفل رضيع ، فرغ نفسه لبناء الجامع لمدة تسعة أشهر، ضرب عجورة علقة سخنة عندما أدعى عليه أنه هو الذي بنى حجرة الضريح، لأن جدرالها غير مستوية،قوالبها داخلة، خارجة غير منتظمة" كالمرأة الحامل" عندما رفض شعبان بناء حجرة الضريح ، استعان الشيخ عطية بعجورة، فبناها سرا ، ووضعوا ضريحا فارغا، وبجواره صندوق من الخشب الزان للنذور، فامتلأ بالنذور ،وقد قال عنه الشيخ عطية" إنه لم يتعلم مهنة البناء على أيدي بشر ، ولكنه هرب منه في شهر شعبان، هو نفس الشهر الذي يحمل اسمه، سكن إحدى القبور لمدة أربعين يوما وفي ليلة القدر وجدناه نائما بجوار قبر والده، فوجئنا به أنه يجيد فن البناء كأنه ولد ليكون بنّاءً، وعندما سألته قال " علمني روح شيخ البنايين"

كان يحب زيارة الأهرمات وكنت استغرب ما الذي يدفعه لذلك، فأهل حرفته يفضلون حديقة الحيوان ، الموالد جلسات المقهى،بينما هو تجده بجوارها اسبوعياً، يتأملها في قداسة،ما الذي يغريه بزيارة تلك الحجارة التي فقدت تأثيرها حتى على المثقفين والمتخصصين والأطفال، فما بالك بصنيعي؟،راقبته في إحدى الزيارات أنه يفعل كما يقولون يلمس الحجارة كأنها

امرأة يتعشقها،يربت على الحجارة كأنه جسدها ،يحتك بها، كأنه يحاول إثارتها ، وعلى وشك الوقوع بها ،ثم يعدل عن رأيه، ويظل بصره معلقا فوق قمة الأهرمات حتى تغرب الشمس، لا يتبادل أي كلمة مع أحد ،وكانت نديرة تحترم صمته بصمت مثله ،وآخيرا يشهق "سبحان الله،علّم الإنسان ما لم يعلم"ثم يعاود الزيارة في الإسبوع المقبل،ذكرني بزيارة عجورة لرشوان في الضريح "لكل إنسان ضريحه"،هل كان ما يقولونه عنه حقيقي ؟ من يقصد بروح شيخ البنائين؟،كل الذي أعرفه أنني سمعته (يقول لنديرة قبل أسبوع من موته) إنها تناديه،وأنه سوف يموت، هل ظلت تلك الروح تطارده؟ الحقيقة الأكيدة: إنه كان عبقرياً في فن البناء، وفي علاقته بنديرة، وربما كان عبقرياً في علاقته بي (تفنن في ابعادي عنه)،اشتممتُ عرقه الذي جف فوق القوالب، رأيت يد كوب مدفوناً داخل الحائط ،تذكرت حكاية نديرة عن "الصول وحكاية فهيمة عن الحوشي "، استجمعت إرادتي، ودخلت حجرته التي أُغلقت منذ ست سنوات عمر وفاته، لم يطرأ عليها أيّة تغيرات ،السرير النحاسي الذي رفض تغييره رغم أنه اشترى حجرة نوم " البرنسيسة " افترشها عدا السرير ، فتحت

الدولاب الخاص به، رأيت جميع ملابسه متراصـــة ،نظيفـــة ، مكواة داخل أكياس تحميها من الأتربة تفيض عطرا ، تذكرت عندما كان يهل أول الحارة، تهرول نديرة إلى داخل الحجـــرة تغسل وجهها، تغيّر عباءتها، فرائحته تسبقه بمئات الأمتار، كل شهر يشتري زجاجة عطر فرنسية " كنت أكثر اشتياقا لمجيئـــه ،فإن وجبة العشاء الوجبة الأساسية التي يأكلها معنا، فكانـــت تطبخ ليلا ، تنتظره، تدّعي أنها أكلت نصيبها مـــن اللحـــم ، فتترك قطعتها له ، يرفض تناول أي لقمة إلا إذا اقتسمها معها.

انتزعت الجلباب الأسود ، مزقته تماما، ثم ألقيت به في سلة القمامة ، ارتديت جلباب أبي، لففت العمامة حـــول رأســـي بنفس طريقته حيث كان يلقي بطرفيها فوق رأسه، ووضـــعت الشال الحريري فوق كتفي، جلست نفس جلسته ، احتضنت (وابور الجاز) بين ركبتي ، تجسد أمامي والسيجارة مشتعلة بين أصابعه النحيلة الطويلة،يشرد ،يتأملني ينتبه علـــى لـــسعة النهاية ،وسقوط عقب السيجارة في حجره،يتمثل أمامي وهـــو يحتضني لما نجحت في الثانوية، وزع الشربات على الحي كله، وسهر معه أهل الحي حتى الفجر ،قال لي بصوت تتقطر منـــه

السعادة، عيناه الخضراوان تزغردان في فخر "إنــت حققــتي لي أكبر حلم في حياتي، أنا وإنت ممكن نعمل شركة مقــاولات، ولما ربنا يكرمنا، وتبقى مهندسة كبيرة ،هافتح لــك شــركة باسمك،شركة أكبر من شركة عجورة؛ بس أحنا مش هــانغش في المواصفات، الواحد بيعامل ربنــا " نزعــت نفــسي مــن أحضانه،تأملته بعينين باردتين ،انتظرت حتى لحظة الــصفر، ثم ألقيت القنبلة "مين قالك إني هادخل هندسة؟ ،أنا وأنت مــش ممكن نشترك في حاجة" نظرته إليّ كانت في البداية نظرة امتنان لشخص أنقذه لتوه من الغرق، وقبل أن يــستمتع بإحــساس العودة للحياة ،قتله بسكين باردة". جذبت صندوق الذكريات من أسفل السرير به ،عدة الشغل، ميزان المية (عبارة عن قطعة من الخشب مكعبة الشكل، عر ضها عرض كفة اليد، وطولهــا ستين سنتيمتر،في وسطها على الجنب قطعة زجــاج بداخلــها قطرة ماء، إذا سكنت في الوسط عندما يضعها فــوق الحــائط ؛معنى ذلك البناء مستقيم،أما إذا مالت ناحية اليسار، أو اليمين معنى ذلك أن هناك خطأ، لابد من معالجتــه ،نــادرا ماكــان يستخدمها، كانت يداه وعيناه هما تلكما الميزان) ، المــسطرين الذي سرقته فهيمة، وهو نائم كي تصلح به حائط العشة،عندما

لا تجد بيضاً ، تنهال فوق الكتاكيت بالعصا، وتتـــهجم علـــى شعبان في حجرته ؛ تبحث عن قشر البيض ، يفزع شـــعبان ، يرفع فخذه من فوق بطن نديرة ،ينهال بالشتائم عليها " كـــل اللي بتعمله ده، ومش ها تعوض الولد " فتسقط نديرة في نوبة بكاء، وصراخ تشبه الصرع ،يهرول شعبان خلـــف فهيمـــة؛ يغسلها بسلاطة لسانه التي كان يلهب بها الرجل قبل المـــرأة ، والقريب قبل الغريب عدا نديرة ،لا أتذكر يوما أو حتى لحظة ، لسعها بحرف حتى في أقصى ليالي الغضب ، ولا حتى من قبيل الهزار، رأيت عدة صور له ،كلها تنتمي لفتـــرات متقاربـــة ، صورته في الزي العسكري عندما كان في الخدمـــة ، صـــورة معلقة فوق بطاقته العائلية، صورة معلقة فوق جـــواز الـــسفر، بحثت عن صورة تجمعنا نحن الثلاثة ،أو حتى تجمعه مع نديرة، لم أتذكر أني سمعته ذات مرة يقول " إنه يحبها "

٢٠

" الحب ما بيتسجلش في صور، وما يتحسش من الكلام "

رأيتها فوق رأسي ، ألقيت بالصندوق بعيدا.

"فهيمة جات معايا، وهي نايمة دلـــوقتي ع الكنبـــة ، دي برضه من ريحة أبوكي هي اللي مربياه "

غضبت ، تقلص وجهي ، أتى صوتي صارخا "شعبان كان بيكرهها " .

ابتسمت في سخرية ، التقمت الصندوق في قداسة .

" إنت تعرفي إيه عن أبوكي؟ اللي اتحرم من الأب قبل مـــا يتولد، ولما اتولد اتحرم من كل شيء ، انكوى ببخل فهيمـــة، ومعايرتها له بأمه، باللقمة اللي بياكلها ونزلته الشغل مع أبويـــا وعمره حداشر سنة اللي انتقم منه ووداه عند بنّا، أقل غلطـــة بضربة مسطرين في أي حتة في جسمه وأظنك شوفتي العلامـــة اللي تحت عينه،واخد فيها ست غرز، كان بيخليه يطلّع عربية طوب ألف طوبة لتلات تدوار، ولما ضاقت به الدنيا،هرب بات في المقابر أربعين يوم،استمر طول حياته ، كل يوم يقوم مفزوع

على كابوس، ولما رجع ،جرجرته فهيمة من رجليه مــن أول الحارة لأخرها ،سلخت راسه، قولك إيه،ولا إيه! ".

صمتت ،بادلتها نفس الصمت، لأول مرة أتــذوق طعــم البول ، تمثلت أمامي مشاهد التقيوء عندما كــان يــشرب أو يستحم ،كان يخشى الماء، نزول المياه عل جسده كأنها ســياط تجلده، تذكره بابتلاعه بول فهيمة .

* * *

" ده شعر الواد شعبان اتحشي بالدمامل، أعمل ايه يا شــيخ عطية ؟،أنا مامعيش فلوس لدكاترة ".

دلكت فهيمة قطعة حلوى من السكر المعقود، ثم ربطــت ذراعي وساقي الطفل شعبان في شباك السرير ، احتضنت رأسه بقوة ثم بدأت تنزع شعره الأصفر الكثيف بالحلوى (الــسكر المعقود) تفاديا للدمامل التي عجنت رأسه، فأصــبح اســتحالة حلقها ؛لم يهزها صراخه وإلتواءاته ،غسلت رأسه الدامية تحت الزير، الدم ما زال يسيل حتى غطى وجهه، ولطخ جلبابه حتى خضب ساقيه " نجسيه يا فهيمه، والدم ها يتمنع " اســتمعت لنصيحة الشيخ عطية ،اختبأتْ خلف الفرن، فرّغت بولهــا في

إناء صفيحي، جرجرت شعبان الذي مازال يتعثر في خطواتـــه، كأنه مغيب عن الوعي، امتزج سيل دموعه بسيل الدم الـــذي يتفجر من رأسه ،أمسكت برأسه بالقوة، ثم غسلتها ببولها الذي انسل إلى حلقه عن طريق انفـــه ،فأخـــذ يتقـــيءحتى أغمـــي عليه،وظل هكذا كلما دخل الحمام وتذكر المشهد.

"كان نفسه يبقى مهندس بس فهيمة مادخلتهوش مدارس، بس هو كان عليه إرادة من حديد وهو في الجيش دخل مدرسة ليلي لمحو أمية العساكرالمجندين، علموه هناك القراية والكتابـــة، أصله قعد في الجيش خمس سنين،خلّفتك وهو في الجيش، كان بيشاغب ويكسر الأوامر ويترللي كل أجازة وهـــو حـــالق ع الزيرو،وكان هيتكتب في الشهادة رديء لولا إن دفع للـــصول مية جنيه كان ليها شنة ورنة ،بس اللي نفعه أكتر إنـــه دخـــل سلاح المهندسين ،كان بيشتغل تحت أيد مهندســـين حـــرب أكتوبر اللي جابو النصر ،خرج من الجيش كان بيصمم البيت ولاّ أحسن مهندس ،وكان أهل الحي لما يعرفو إنه هايبني البيت الفلاني كانوا بيروحوا يتفرجوا عليه ، لمـــا كنـــت أمـــرض ، ماكنتش أروح لدكتور ،أقول لهم، هاتولي شعبان ، أهل الحارة يلفوا عليه لحد ما يلاقوه ، بسيب الشغل، ويباجي ، وكتير كان يتنازل عن أجرته ،كنت أحط راسي في حضنه، وأنام ويفضل

هو سهران لحد الصبح: أقوم زي الحصان يشدني من الضفيرتين، ويقول لي :" الناس اللي شعرهم طويل، فهمهم على قدهم " .

أضحك وأقول " قصر ديل يا أزعر " بس كت عارفة إن نَفَسَه لما هيدخل جوايا هيشفيني ".

انفجرتْ في نشيج حتى سقطت في حضني، لأول مرة أشعر بدفء جسدها، كانت لديّ رغبة قوية أن ألتحم بها حتى نصير كتلة واحدة، أعلم أن لديها نفس الرغبة، لكنني جمدتها " مش كتير عليه أكون أمه ، أبوه ، أهله ،حتى الولد "

تجمدت كتمثال، كأنها تستقطع الكلمات بالسكين من روحها "قعدت سهرانة طول الليل، وهو في حجري ،كنت عايزة أديله عمري بس يعيش، ويبقى له السند اللي اتحرم منه ، النوم غلبني ، مادريتش إلا وهو بيصحيني بنفس ابتسامته الساحرة ،سألته عن الولد ، قال لي مات، عرفت بعد دفنه بأيام، إني فطسته في حجري ، بس خاف يصحيني ،وقال لي " فداك مية ولد ".

انقضت نديرة عليَّ كالوحش ،عندما رأت ملابس الولد متفحمة، ضغطتني بين يديها المحمومتين " لما حرقتي هدومه ،

بشّرتي على شعبان بالموت، حرام عليكي تموتي آخر راجـــل في حياتي، من اللحظة دي ، دوريلك على أم تانية " .

ربما الآن، وأنا أُصحح الاسطوانات التي سجلها الـــدكتور باهي على لساني ،أحاول أن أتفهم ثورتها عليَّ عندما حرقـــت ملابس الابن الذكر، إنها كانت تحتفظ بهذه الملابس كتعويذة لحماية شعبان من الموت ، وكأن الابن بموتـــه افتـــدى الأب ، فأضيف العمر الذي كان من المفترض أن يعيشه الابن إلى عمر الأب، فإذا ظلت محتفظة بهذه الملابس ، معنى ذلك سيمتد عمر شعبان إلى الضعف؛وهذا يفسر السبب الذي اشترت من أجله فهيمة كفنها، واحتفظت به في نفس الضلفة التي بها ملابـــس الأخ الذكر ،وإن كان موقفها مختلفا، ولكنه يقع تحت نفـــس الاعتقاد "لما أشتري كفني وأنا في عز صحتي،الموت يعاند معايا، ويقوللي طيب مش هاتموتي دلوقتي ولما أشيله جنب هدوم طفل صغير مات، بأقول للموت إني كان نفسي أفديه، فالموت يرجع يعاند معايا تاني، وياخد حد تاني،علشان كده اشتريت كـــيس ملان حبوب نفتالين علشان تحمي الكفن من العتة لعشرين سنة ع الأقل، ع العموم دي أعمار،ماحدش ضامن ،القماش تمنـــه بيغلى يوم عن يوم،أنا اشتريت توب دبلان وتوب قطيفة حمرة وقطيفة خضرة وقماش شعر صباح بيبرق زي الـــدهب حـــتى المفرش القطيفة اللي هايتغطى بيه الكفن ،وصـــابونة أم ريحـــة وقزازة ريحة خمس خمسات اللي هايغسلوني بيها وكل أســـبوع

بنضف نفسي من تحت ومن فوق علشان مايطلعوش يقولوا إني كنت منتنه زي ماحصل مع كلثوم وملاية جديدة اللي هايرقدوني عليها بعد مااتغسل،ماحبش حد يشمت فيّ وأنا ميتة،كل ده كلفني ميتين وخمسين جنيه ،شوفي بعد عشرين ولاّ تلاتين سنة،ويمكن أكتر ،يبقوا بكام؟ ".

انحنت فوق الصندوق، انتقت صورة عرسها، حملقتُ فيها، رأيتها مرتدية شعرها، نعم هذا الوصف الوحيد الذي يمكن أن أطلقه عليها " كت لابسة فستان أبيض ، بس الخواجة صاحب العفريتة ، قال لي" الصورة كده مش ها تطلع ،لأنها أبيض وأسود "، فلفني بشعري يبجي أربع لفات، غطى الفستان كله لحد وسطي" .

تحسستُ شعري، ابتسمت، عندما استرجعت مشهد النسوة الأربعة اللائي يقفن فوق الطبلية كي يمشطوا شعرها .

" بكرة يطول " .

رفعت يدي من فوق شعري، طلبت مني أن أخلع الجلباب.

" قبل ما أنام بحب شم ريحته في الهدوم ،وبالذات في الجلابية دي،لأنها حلبية الاتفاق ".

* * *

هرولت نديرة إلى داخل المترل ، هاربة من أغنية صـــديقاقما الساخرة .

"نديرة، يا نديرة، يا مرات شعبان جوزك، يا نديرة قرصـــه التعبان".

رأت والدها يدخن " الشيشة " جلست بجواره لحظـــة، ثم انتفضت من شدة الغيظ ،دخلت حجرهّا بعد دقائق رجعـــت، جلست بجواره، وهي تفرك كفيها ، ابتعدت عن إناء الجمرات، تنهدت، أبوها يراقبها بطرف عينه اليـــسرى، ثم عـــاود بـــث موجات الدخان من أنفه في وجهها.

"شوف شعبان ده، ما يلزمنيش، ده أنا شفته النـــهارده في الشارع، الجلبية عليه مكشكشة، وسخة ، وحاجة تكـــسف، والبنات هزقتني ".

استدار لها أبوها، ألقـــى بإنـــاء الجمـــرات في حجرهـــا ، انتفضت، احترق حجر عباءهّا " المرة الجايـــة، هـــا يبقـــى في وشك، عايزة واحد جاي م الشغل يبقى شكله إيه ؟ أمال لمـــا بيجي في الليل بتفضلي لازقة فيه لحد الفجر،ليه ؟ " .

هرولت نحو حجرهّا " هاموت نفسي ".

نهض إليها، لطمها بأقصى قوته "دلـــع المـــساكين يقطـــع المصارين، هو زي الفرارجي ".

ساعتها خفت أعمل عاجزة، أحسن يدفني في المقبرة ،المـــرة دي تبقى مليانة، واتفقت معاه إني ها أتجوز شعبان لمدة شـــهر بس ،وعرف شعبان، ومن ساعتها ،وهو بيستحم في الشغل قبل ما ييجي، ويلبس الجلابية مكوية ،ويرش على جـــسمه قـــزازة ريحة، فأعرفه على بعد مية متر ، والجلبية دي أول اتفاق، بس اتلسعت من شيشة رجب الحوشي، ومن ساعتها، وأنا محتفظة بيها".

صمتت، أمسكت بوجهي بين يديها، وراحت عيناها تجوب روحي المتمردة، التائة، الغير متسامحة، تحاول أن تتصالح معهـــا، أن تمسك بها، وتنظفها من كل الأحقاد، والقذارات المتراكمـــة فوقها منذ سنوات .

"يمكن ماعرفش يعبر لك عن حبه، لأنه عمره مـــا عرفـــه، يمكن أحاسيسه نشفت من كتر القساوة اللي سلخت عمـــره، ويمكن أكون أهملتك، لأني حبيته قوي ،وقلت كفاية يكون لك أب وأم وبيت،أصلك ما تعرفيش قيمة الحاجات دي،هو بـــس اللي يعرفها؛ لأنه اتحرم منها، أوعي تفتكري إنه كـــره فهيمـــة

بسبب عمايلها فيه ،بالعكس كان ديما بيوصيني عليها ويقوللي " لولاها لضعت في الشارع وقسوتها معايا هي اللي خلتني أبقى صنيعي درجة أولى، أنا باعتبرها أمي الحقيقية،صحيح عملت حاجات آذتني بيها، بس كل الأمهات والأباهات ممكن يأذوا أولادهم من غير مايحسوا، زي ماعملت أنا مع جيداء،ياريتني كنت.. ! ".

قفزت نديرة إلى السرير، أخرجت صورة من كيس الوسادة، وورقة مطوية، ارتسمت ابتسامة على وجهها الذي خضلته الدموع، أعطتني صورة طفلة رضيعة لم يتجاوز عمرها الثلاث سنوات، يحتضنها شعبان، يقبلها " دي صورتك، أما الورقة دي عقد بيع فهيمة ليكي، ومسجل في الشهر العقاري ، اشتراه أبوكي باسمك بشقى شتلات سنين غربة، وبكده ليكي حرية التصرف في البيت، تبيعيه، تبيعينا، بس يا ريتك تعرفي إنك لوبعتيه ، هتبيعي حاجات أكبر!".

